الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
كلية أصول الدين

قسم الكتاب والسنة

السنة الثانية ماستر2

الحديث وعلومه

السداسي الثالث

مطبوعة بيداغوجية في مادة

دراسات نحوية وبلاغية في الحديث النبوي

من إعداد الدكتور:
عبد الرحيم ثابت

السنة الجامعية 2025/2024م

Tabet.rahim1985@gmail.com

المقرر البيداغوجي وأهدافه التعليمية

المادة: دراسات نحوية وبلاغية في الحديث النبوي

السداسي: الثالث

عنوان الوحدة: وحدة التعليم الاستكشافية

محتوى المادة:

المحور الأول: مقدمات مفاهمية

الفصاحة والبلاغة: المصطلح والدلالة

المحور الثاني: الاتجاه بالحديث النبوي في اللغة بين المجيزين والمانعين

الاتجاه الأول : الاستشهاد مطلقا

الاتجاه الثاني: المنع مطلقا

الاتجاه الثالث: التوفيق بين المذهبين

المحور الثالث: شبهات المستشرقين في بلاغة الحديث وفصاحته

المحور الرابع: خصائص الأسلوب النبوي. الفكرة -الصورة- العبارة

المحور الخامس: التحليل البلاغي لكلام النبي صلى الله عليه وسلم

- في القصص النبوي
- خطب النبي صلى الله عليه وسلم
- أدعية النبي صلى الله عليه وسلم.
- أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم
- الرسائل والوثائق
- الأمثال النبوية

أهداف التعليم:

- الوقوف على بلاغة الحديث النبوي من خلال دراسة نماذج من الأحاديث في مختلف أساليب البيان
- رفع مستوى الطالب من الناحية البلاغية والبيانية

- التدريب على دراسة النص النبوي، وذلك باعتبار البلاغة أحد روافد الشرح الحديثي

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

فإنّ القرآن الكريم هو كليّة الشريعة وينبوع الملّة، ذلك أنّ كليات الأدّلة التفصيلية والإجمالية التي يعتمدها الأئمة المجتهدون في استنباط الأحكام الشرعية مذكورة فيه، ولاريب عند المحققين من عقلاء المسلمين أنّ سنة المصطفى -صلى الله عليه وسلم -ثاني مصادر التشريع الإسلامي المتفق عليه بين الأئمة المجتهدين بعد كتاب الله تعالى، فهي بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب، قال تعالى﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤]، وبالجملة فهي راجعة في معناها إلى الكتاب تفصّل مجمله، وتبيّن مشكله، هذا وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله الكريم، وأبان أنّ طاعته من طاعته والقبول عنه من القبول عن الله، وفرض الامتثال لحكمه، والانتهاء عند أمره، قال تعالى﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾ [النساء: ٨٠]،

ولمّا كان الأمر كذلك وجب على أئمة المسلمين ضرورة الاعتماد عليها، والرجوع إليها في استنباط الأحكام.

هذا وقد أوتي -صلى الله عليه وسلم - جوامع الكلم، وأيّد بفصاحة المنطق، وحسن القول، وقوّة الاقناع، وبراعة التفنن في الأساليب، وقد كانت له مقومات وعوامل أهلته لاكتساب هذه البلاغة والفصاحة، وقد كان من تمام التكليف، وتمام التأييد والاعانة والنصرة أن يخصّه جلّ وعلا بقوة الفصاحة والبلاغة ويزيّن بالمنطق الحسن، حتّى يقرع الخصوم، ويجابه الأعداء وتقوى حجته في البيان.

وبالجملة فإنّ بلاغته - صلى الله عليه وسلم - بلغت المنتهى وأجمع عليها جماهير العلماء، وأطبق عليها طوائف الأدباء، فكلامه صلوات ربي وسلامه عليه مستوحى من مشكاة النبوة، محلى بلآلئ الحكمة، مؤيد بتوفيق الإله الكريم.

ومن هنا كان من المقاييس التي قُرِّرت على طلبة السنة الثانية ماستر تخصص الحديث وعلومه؛ مقياس "دراسات نحوية وبلاغية في الحديث النبوي"، الذي احتوت مفرداته على مسائل علمية مهمة تتعلق بالحديث النبوي من الجانب اللغوي والبلاغي، وذلك من خلال التعرض والتطرق لمواضع وقضايا دقيقة لها الأثر البيّن في تكوين طالب علم الحديث من الناحية اللغوية والبلاغية نظريا وتطبيقيا، هذا وقد كلفت بإنجاز مذكرة علمية لطلبة التخصص في هذا المقياس، قصد الاستعانة بها على فهم مباحث ومسائل مفردات هذا المقياس، فاجتهدت في جمع مفرداتها، ولمّ شتات مسائلها ملتزما في ذلك كلّه بالمقرّر، وقد حرصت بالغ الحرص على الإيجاز غير

المخلّ، ومجانبة الإطناب الممّل، متحريّا في ذلك سهولة العبارة، وبساطة الأسلوب، حتّى تكون قريبة التناول، تكون لهم منطلقا ومفتاحا للبلاغة النبوية.

هذا وقد نوّعت في جمعها من عديد المصادر، وكثير المراجع والدفاتر، وفي الختام أسأل المولى جلّ وعلا أن ينفع بها طلابنا الكرام، وأن يجعلها فاتحة خير لهم في هذا العلم المبارك، وأن تكون منطلقا لهم في الدراسات البلاغية في السنة النبوية، والله أسأل أن يوفقني للإخلاص في النية والصواب في القول.

مقدمات مفاهيمية البلاغة والفصاحة

1- تعريف البلاغة

2- تعريف الفصاحة

المحاضرة1

مقدمات مفاهيمية البلاغة والفصاحة

أولا – تعريف البلاغة والفصاحة:

أ - تعريف البلاغة:

لغة: إذا ما جئنا نستبين مدلول كلمة البلاغة في اللغة لزم الرجوع للمعاجم والقواميس فهي من تفيدنا بذلك. وبالعودة إليها وجدت أنّ المادة اللغوية لمصطلح البلاغة تفيد بأنّها مشتقة من الفعل بلغ الذي يعنى الانتهاء والوصول للشيء.

حيث جاء في لسان العرب ما نصه:«بلغ الشي يبلغ بلوغا وبلاغا، وصل، وانتهى، وأبلغه هو إبلاغا، وبلّغه تبليغا... تبلّغ بالشيء وصل إلى مراده، والبالغ ما يتبلغ به، ويتوصل إلى الشيء المطلوب»[1].

وقال الزبيدي: «بلغ المكان، بلوغا بالضم وصل إليه وانتهى، ومنه قوله تعالى:﴿ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:٧]، والبلاغ: الاسم من الابلاغ والتبليغ، وهما الايصال، يقال: أبلغه الخبر إبلاغا، وبلغه تبليغا»[2].
فالمعنى الذي أفادته المعاجم أنّ مصطلح البلاغة في عرف اللغة هو الانتهاء والوصول إلى الشيء.

وأما في الاصطلاح: فقد عرّف العلماء البلاغة بتعريفات كثيرة ومتنوعة، من ذلك:

1- تعريف الإمام السّكاكي الذي قال: «هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التركيب حقها، وإيراد التشبيه، والمجاز، والكناية على وجهها»[3].

ومن المتأخرين كذلك الذين استقر على تعريفهم وتقسيمهم الامام القزويني، فقد فرّق في تعريفه بين بلاغة الكلام، وبلاغة المتكلم، فقال عن بلاغة الكلام «وأمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ومقتضى الحال مختلف فإنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف، ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد، ومقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة، وكذلك خطاب الذكي يباين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام ...»[4].

---

[1] - ابن منظور: ج 8، ص 419، - مادة بلغ -

[2] - تاج العروس من جواهر القاموس، د ط، تحقيق علي شبري، بيروت، دار الفكر، 1414 هـ 1994 م، ج 12، ص 7 -8،- باب الغين -.

[3] - مفتاح العلوم: ط 1، ضبط وتعليق نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ - 1983 م، ص 415.

[4] - الايضاح في علوم البلاغة: ط 4، دت، بيروت، دار إحياء العلوم، 1998 م، ص 13.

وقال في بيان بلاغة المتكلم: «وأمّا بلاغة المتكلم فهي ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ»«[1]»، ثمّ قسّم علوم البلاغة إلى ثلاثة أقسام فقال: «حصر علوم البلاغة: وقد علم بما ذكرنا أمران: أحدهما أنّ كل بليغ - كلاما كان أو متكلما - فصيح وليس كل فصيح بليغا، الثاني: أنّ البلاغة في الكلام مرجعها إلى الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وإلى تمييز الكلام.

الفصيح من غيره، والثاني أعني التمييز منه ما يتبين في علم متن اللغة، أو التصريف أو النحو، أو يدرك بالحس، وهو ما عدا التعقيد المعنوي، وما يحترز به عن الأول أعني الخطأ في تأدية المعنى المراد - هو علم المعاني، وما يحترز به عن الثاني - أعني التعقيد المعنوي - هو علم البيان، وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع»[2].

ب - تعريف الفصاحة:

لغة: «أمّا الفصاحة لغة فإنّها من قولهم: أفصح فلان عمّا في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنّها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر، وفصح أيضا، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين... والفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد»[3].

وأما في الاصطلاح: فقد عرّف العلماء الفصاحة بتعريفات كثيرة ومتنوعة، وفرّقوا بينها وبين البلاغة، من ذلك:

تعريف الإمام الخفاجي: «... وسمي الكلام فصيحا، كما أنّهم سموه بيانا، لإعرابة عمّا عبّر به عنه، وإظهاره له إظهارا جليّا، وروي عن النبي -صلى الله عليه وسلم -أنّه قال: «أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش» [4]، والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون وصفا للألفاظ إلاّ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لا تدلّ على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها: إنّها فصيحة، وكلّ كلام بليغ فصيح. وليس كلّ فصيح بليغا، كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه»[5].

وقد جعل الإمام أبو هلال العسكري البلاغة والفصاحة شيئا واحدا، وإن اختلف أصلهما من جهة اللغة، وفي ذلك يقول : «أمّا الفصاحة لغة فإنّها من قولهم: أفصح فلان عمّا في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنّها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء، وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر، وفصح أيضا، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ؛ وفصح اللّحان إذا أعرب عمّا في نفسه وأظهره على جهة الصواب

---

[1] - الايضاح في علوم البلاغة : ص 15.

[2] -المصدر نفسه: ص 15 - 16.

[3] - الصناعتين الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري، ص 7.

[4] - الحديث موضوع ذكره السيوطي في اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوع، والعجلوني في كشف الخفاء، وقال: « قال في اللالئ: معناه صحيح، ولكن لا أصل له، كما قال الحفاظ ابن كثير، وغيره من الحفاظ، وأورده أصحاب الغريب ولا يعرف له إسناد.... » كشف الخفاء ومزيل الإلباس، إسماعيل بن محمد العجلوني، ط 1، تحقيق عبد الحميد بن هنداوي، بيروت - المكتبة العصرية -، 1420 هـ - 2000 م، ج 1، ص ص 228.

[5] - ينظر: سرّ الفصاحة، ص 59.

دون الخطأ وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما؛ لأنّ كلّ واحد منهما إنّما هو الإبانة عن المعنى والإظهار له»[1].

وبعد إخباره - أبو هلال العسكري - بأنّ الفصاحة والبلاغة يرجعان إلى معنى واحد أشار إلى أنّ بعض العلماء فرّق وغاير بينهما من بعض الوجوه، فالفصاحة عندهم تمام آلة البيان وهي تعنى باللفظ فتكون مقصورة عليه، والبلاغة تختص بالمعنى دون اللفظ، وفي ذلك يقول: « وقال بعض علمائنا: الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحا ؛ إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة، ويوصف كلامه بالفصاحة ؛ لما يتضمن من تمام آلة البيان.

والدليل على ذلك: أنّ الألثغ والتمتام لا يسميان فصيحان لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف، وقيل: زياد الأعجم لنقصان آلة نطقه عن إقامة الحروف، وكان يعبر عن الحمار بالهمار، فهو أعجم، وشعره فصيح لتمام بيانه، فعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفتين، وذلك أن الفصاحة تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللفظ، لأنّ الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ؛ والبلاغة إنّما هي إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى.

ومن الدليل على أنّ الفصاحة تتضمن اللفظ، والبلاغة تتناول المعنى أنّ الببغاء يسمى فصيحا، ولا يسمى بليغا ؛ إذ هو مقيم الحروف وليس له قصد إلى المعنى الذي يؤديه، وقد يجوز مع هذا أن يسمى الكلام الواحد فصيحا بليغا إذا كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيّد السبك، غير مستكره فجّ، ولا متكلف وخم، ولا يمنعه من أحد الاسمين شيء، لما فيه من إيضاح المعنى وتقويم الحروف»[2].

[1] - الصناعتين الكتابة والشعر: ص 7.

[2] - الصناعتين الكتابة والشعر: ص 7 - 8.

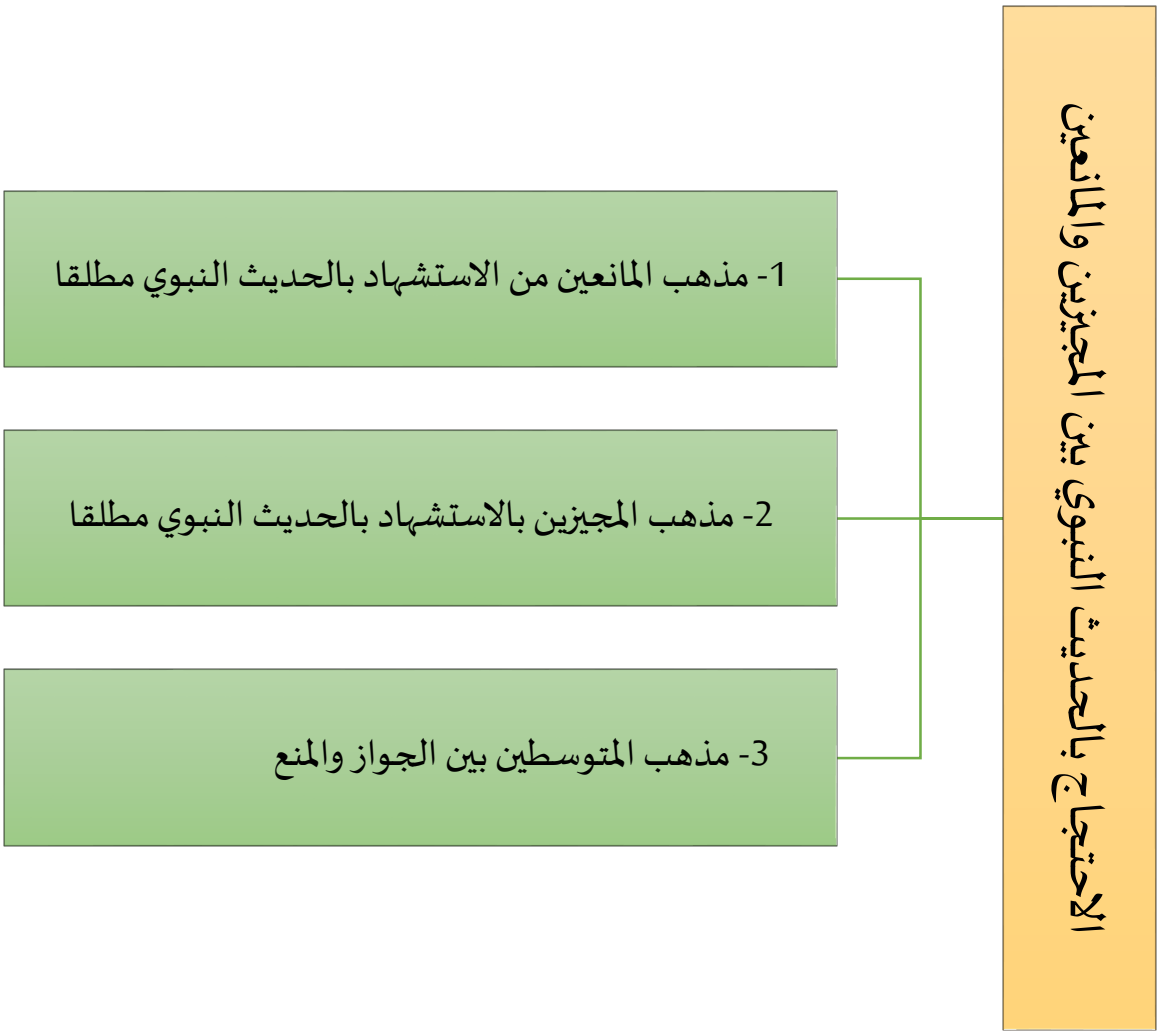

الاحتجاج بالحديث النبوي بين المجيزين والمانعين

1- مذهب المانعين من الاستشهاد بالحديث النبوي مطلقا

2- مذهب المجيزين بالاستشهاد بالحديث النبوي مطلقا

3- مذهب المتوسطين بين الجواز والمنع

المحاضرة2

لقد كان القرآن الكريم أولى مصادر اللغويين الذين استقوا منه مادة اللغة العربية، واحتجوا به من غير خلاف بينهم على جلّ القواعد النحوية والصرفية، لأنّه أفصح الكلام وأبلغه بلانزاع، وغيره من كلام البشر دونه وقاصر عنه. وقد نّبه على هذه المزية للقرآن في الأصل والمكانة الإمام الراغب الأصفهاني، حيث قال في ذلك: «ألفاظ القرآن الكريم هي لبّ كلام العرب، وزبدته وواسطته، وكرائمه وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء... وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء، وما عداها كان كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة»[1].

ولقد كان الأصل أن تأتي السنة بعد القرآن في الرتبة عند اللغويين العرب في مصادر وموارد الاحتجاج عندهم، لأنّ كلامه - صلى الله عليه وسلم - بالمحلّ الأفضل والموضع الذي لا يجهل، إذ لا تعرف العربية ولا تعهد كلاما أفصح وأبلغ بعد القرآن مثل كلامه - صلى الله عليه وسلم -، فكلامه فوق كلّ كلام البلغاء والفصحاء، وقد وصف الجاحظ كلامه وبلاغته عليه الصلاة والسلام بقوله: «هو كلام قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تعالى: قل يامحمد: «وما أنا من المتكلفين»، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أهل التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب السوقي، ورغب عن الهجين الوحشي، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم بكلام إلاّ قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد، ويسّر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألق الله عليه وغشّاه بالمحبة والقبول، وجمع له، بين... الحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام» [2].

ولقد خالف بعض النحويين هذا الأصل وقدّموا شعر العرب على حديث النبي -صلى الله عليه وسلم - في الاستشهاد والاحتجاج على القواعد اللغوية والنحوية والصرفية، متذرعين ومتحججين ببعض الحجج، بل قد جعل بعضهم هذا الرأي كشبه الاجماع في المسألة، والناظر في كتب اللغة وبحوثها القديمة والمعاصرة التي تعرضت لهذه القضية العلمية يبصر انقسام العلماء فيها إلى ثلاثة اتجاهات، فهناك من ذهب إلى المنع مطلقا من الاستشهاد بالحديث النبوي على القواعد اللغوية والنحوية، ومنهم من رأى جواز الاستشهاد مطلقا، ومنهم من سلك مسلك المتوسطين الذين أجاوزا الاستشهاد بالحديث النبوي بشروط وضوابط، وسنعرض في هذه المحاضرة آراء كلّ فريق وحججهم في المسألة ملتزمين في ذلك الإنصاف والتحقيق العلمي في المسألة .

الاتجاه الأول: مذهب المانعين من الاستشهاد بالحديث النبوي مطلقا

[1] - ينظر: المفردات للراغب الأصفهاني، ج 1، ص 55

[2] - ينظر: البيان والتبيين، ج 2، ص 13.

ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى رفض الاحتجاج بالحديث النبوي صراحة ومطلقا، وقد أشار الإمام ابن الطيّب الفاسي إلى أنصار هذا المذهب وأعلام هذا الاتجاه الذين تبنوا القول به، فقال: «... لا نعلم أحدا من علماء العربية خالف العلماء في الاحتجاج بالحديث الشريف إلاّ ما أبداه الشيخ أبو حيّان في شرح التسهيل، وأبو الحسن ابن الضائع في شرح الجمل، وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي - رحمه الله - فأولع بنقل كلامهما، واللّهج به في كتبه، واعتنى به باستيفائه في كتابه الموسوم ب: الاقتراح في علم أصول النحو...»[1].

لقد استند المانعون من الاحتجاج بالحديث النبوي على جملة من الحجج والأدلة، وسنعرض أبرز الحجج التي تذرعوا بها في هذه القضية ونبسطها، ثمّ نقوم بمناقشتها وبيان ردود العلماء عليهم في هذه المسألة:

-. اتكاؤهم واستنادهم على امتناع اللغويين الأوائل من الاحتجاج بالحديث النبوي:

لقد كان من الحجج التي تذّرع بها أعلام وأنصار هذا الاتجاه في عدم تجوزيهم الاستشهاد بالحديث النبوي هو تعويلهم على ما مشى عليه المتقدمون من اللغويين والنحاة في ترك الاستشهاد بالحديث على القواعد اللغوية. وفي هذا الشأن يقول الإمام أحمد الاسكندراني - رحمه الله -: «مضت ثمانية قرون والعلماء من أوّل أبي الأسود الدؤلي إلى ابن مالك لا يحتجون بلفظ الحديث في اللغة إلاّ الأحاديث المتواترة، وقد اختلف في عددها فقيل: ثلاثة، وقيل: خمسة إلى ستة عشر...»[2].

- اتكاؤهم واستنادهم على تجويز المحدّثين الراوية بالمعنى:

ذهب طائفة من اللغويين إلى عدم تجويز الاستشهاد بالحديث النبوي على القضايا اللغوية والنحوية بحجة رواية المحدثين والرواة الأوائل للحديث بالمعنى، وأنّه يستحيل أن يكون ذلك الكم الهائل من الحديث محفوظا حقيقة بلفظه - صلى الله عليه وسلم -، إذ لا يعقل ذلك في نظرهم، لأنّهم يرون اختلاف الحديث الواحد وروده بألفاظ وصيغ مختلفة. وفي ذلك يقول الإمام أبو الحسن الضائع فيما نقله عنه الإمام البغدادي ما نصّه: «تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندي في ترك الأئمة - كسيبويه وغيره - الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن، وصريح النقل عن العرب، ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى في الحديث لكان الأولى في إثبات فصيح اللغة كلام النبي -صلى الله عليه وسلم -، لأنّه أفصح العرب»[3].

وقال معاتبا ومنكرا على ابن خروف جنوحه وميله لتجويز الاستشهاد بالحديث النبوي على اللغة بقوله: «... وابن خروف يستشهد بالحديث كثيرا، فإن كان على وجه الاستظهار و التبرك بالمروي فحسن، وإن كان يرى أنّ من قبله أغفل شيئا وجب استدراكه عليه فليس كما رأى...»[4].

---

[1] - ينظر: تحرير الرواية في تقرير الكفاية، ص 96 -97.

[2] - محاضر الجلسات: ج 1، ص 298 -301.

[3] - خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب: ج 1، ص 10.

[4] -المصدر نفسه: ج 1، ص 10.

ويقول الإمام البغدادي في موضع آخر موضحا سبب عدول النحويين عن تجويز الاستشهاد بالحديث النبوي على القواعد الكلية في اللسان العرب: «... وقد جرى الكلام في ذلك مع بعض المتأخرين الأذكياء، فقال: إنّما ترك العلماء ذلك لعدم وثوقهم أنّ ذلك لفظ الرسول - صلى الله عليه وسلم -، إذ لو وثقوا بذلك لجرى مجرى القرآن الكريم في إثبات القواعد الكلية، وإنّما كان ذلك لأمرين:

أحدهما: أنّ الرواة جوّزوا النقل بالمعنى، فتجد قصة واحدة قد جرت في زمانه - صلى الله عليه وسلم - لم تقل بتلك الألفاظ جميعها، نحو ما روي من قوله: «زوجتكها بما معك من القرآن»[1]، «ملكتكها بما معك من القرآن»، «خذها بما معك من القرآن»، وغير ذلك من الألفاظ الواردة، فتعلم يقينا أنّه -صلى الله عليه وسلم - لم يلفظ بجميع هذه الألفاظ، بل لا يجزم بأنّه قال بعضها، إذ يحتمل أنّه قال لفظا مرادفا لهذه الألفاظ غيرها، فأتت الرواة بالمرادف ولم تأت بلفظه، إذ المعنى هو المطلوب، ولا سيما مع تقادم السماع، وعدم ضبطها بالكتابة، والاتكال على الحفظ، والضابط منهم من ضبط بالمعنى، وأمّا من ضبط اللفظ فبعيد جدا ولا سيّما في الحديث الطوال.

وقد قال سفيان الثوري: إن قلت لكم: «إنّي أحدّثكم كما سمعت فلا تصدقوني»، إنّما هو المعنى فمن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين أنّهم يروون بالمعنى» [2].

- ادّعاؤهم وقوع اللّحن في كثير من الأحاديث بسبب عجمة كثير من رواة السنن والآثار

ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى تعليل ترك الاحتجاج بالحديث النبوي على قواعد اللسان العرب بحجية وقوع اللحن في الأحاديث المروية بسبب عجمة الرواة الناقلين لها، لأنّهم لا علم لهم ولا دراية لهم باللسان العربي، فلا يأمن وقوعهم في اللحن والخطأ الفاحش الذي يحيل المعاني ويغير المراد من الألفاظ، وممّن ورد عنه ذكر هذا السبب الإمام أبو حيّان الذي يقول فيما نقله عنه البغدادي: «... الأمر الثاني: أنّه وقع اللحن كثيرا فيما روي من الحديث، لأنّ كثيرا من الرواة كانوا غير عرب بالطبع، ولا يعلمون لسان العرب بصناعة النحو فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ونعلم قطعا من غير شكّ أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أفصح العرب فلم يكن يتكلم إلاّ بأفصح اللغات، وأحسن التراكيب وأشهرها وأجزلها، وإذا تكلم بلغة غير لغته فإنّما يتكلم بذلك مع أهل تلك اللغة على طريق الإعجاز، وتعليم الله له ذلك من غير معلم. والمصنف قد أكثر من الاستدلال -يعني ابن مالك - بما ورد في الأثر متعقبا بزعمه على النحويين ؛ وما أمعن النظر في ذلك ولا صحب من له التمييز» [3].

---

[1] - أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الوكالة، باب وكالة المرأة الإمام في النكاح، ج3، ص 100، رقم 2310، عن سهل بن سعد -رضي الله عنه -.

[2] - خزانة الأدب: ج 1، ص10.

[3] - ينظر: المصدر نفسه: ج 1، ص 10 - 12.

ردود ومناقشات حجج المانعين من الاستشهاد بالحديث النبوي على قواعد اللسان العربي

لقد سبق في تقرير وعرض أدلة المانعين من الاستشهاد بالحديث احتجاجهم بامتناع نحاة المرحلة الأولى عن الاحتجاج بالحديث النبوي على القواعد الكلية للسان العربي. وهذا الكلام غير صحيح ولا وجه له من الصحة، ولامستند لأصحابه القائلين به. وذلك لأسباب ووجوه عديدة نذكر منها.

أولا: قلة دراية نحاة المرحلة الأولى بالحديث النبوي وعلم الرواية، الأمر الذي جعلهم يحجمون ويمسكون عن الاستشهاد بالحديث النبوي، مع اكتفاءهم بالوارد من القرآن وأشعار العرب، ولكن مع ذلك لم تكن كتبهم خالية من إيراد الأحاديث النبوية في موضع الاستشهاد، بل كانت عامرة وحافلة في البعض منها. وقد وضّح هذا الأمر الإمام ابن الطيب الفاسي - رحمه الله - بقوله: «... فأمّا عدم استدلالهم بالحديث فلا يدل على أنّهم يمنعون ذلك، ولا يجوزنه كما توهمه، بل تركهم له لعدم تعاطيهم إيّاه، وقلّة إسفارهم عن محيّاه،على أنّ كتب الأقدمين الموضوعة في اللغة لا تكاد تخلو عن الأحاديث والاستدلال بها على إثبات الكلمات، واللغة أخت النحو»[1].

ثانيا: تأخر تدوين الحديث النبوي وجمعه كان سببا في عدم ذكر نحاة المرحلة الأولى له في كتبهم، بل تأخر جمع السنن والآثار إلى ما بعدهم، فتأخر اشتهار الحديث بينهم أدّى إلى عدم ذكره لهم في كتبهم، لكن بعد التدوين أصبحو يذكرونه في كتبهم. وفي ذلك يقول الإمام ابن الطيب الفاسي ـ رحمه الله -: «... وأيضا في الصدر الأول لم يكن الحديث مدونا مشهورا مستعملا استعمال الأشعار العربية، والآي القرآنية، وإنّما اشتهر ودون بعدهم، فعدم احتجاجهم به لعدم اشتهاره بينهم، وعلماء الحديث غير علماء العربية، ولما تداخلت العلوم وتشاركت استعملوا بعضها في بعض، وأدخلوا فنّا في فنّ، حتّى صارت المنقولات المحضة نوعا من المعقولات. وبالجملة فكونهم لم يحتجوا بالحديث لا يلزم منه منعهم لذلك كما لا يخفى، وأمّا ادّعاؤهم أنّ نحاة الأقاليم تابعوهم على ذلك فهو مصادرة، بل هذه كتب الأندلسين، وأهل المغرب قاطبة مشحونة بذلك»[2].

وقد أرجع البعض سبب سكوت نحاة المرحلة الأولى عن الاحتجاج بالحديث لإحدى أمور ثلاثة:

الأول: أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال قولته المشهورة: «أنا أفصح العرب بيد أنّي من قريش» فلم تترك هذه المقولة مجالا لأحد في المناقشة، وكأنّها تجعل الاحتجاج بالحديث أمرا مسلما به كما هو الأمر في الاحتجاج بالقرآن الكريم.

الثاني: أنّ الوضع في الحديث كثر وتزايد في تلك المرحلة بحيث صعب على النحاة الأوائل الذين كانوا يتحرون الدقة ويتشدّدون التشدد كله أن يميزوا ما هو للرسول، وما هو ليس منه.

---

[1] - ينظر: تحرير الرواية في تقرير الكفاية، ص 100.

[2] - المصدر نفسه: ص 100.

الثالث: إنّ الحديث روي بعضه بالمعنى، فاشتمل على لفظ غير لفظ النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وإعراب غير إعرابه، وتصريف في اللفظ غير تصريفه، الأمر الذي جعل هؤلاء يتحرجون من البت في هذه القضية[1].

وفي تقرير أدلة المانعين من الاستشهاد بالحديث النبوي على القواعد الكلية في اللسان العربية سبق وأن ذكرنا أنّ من أدلتهم في هذه القضية هو ترخص وتجويز بعض المحدثين الرواية بالمعنى، ولنا في هذه الحجة كلام من وجوه:

أولا: إنّ تجويز المحدثين للرواية الحديث بالمعنى أمر ليس على إطلاقه، بل مقيد بشروط وضوابط، ومن تفحّص كتب المصطلح،ونقب في مباحث الرواية يرى أنّ المحدثين قيدوا ذلك بشروط وضوابط إن روعيت جاز ذلك، وإن فقدت امتنع ذلك، كما أنّ الرواية بالمعنى ليس مذهب جلّ العلماء من المحدثين والفقهاء والأصوليين، بل هناك جماعة من العلماء منع ذلك، وتشدّد في الأمر، ومن كتب المصطلح التي عالجت هذه المسألة كتاب تدريب الرواي للإمام السيوطي -رحمه الله- فقد خصّص في كتابه هذا فرعا مندرجا تحت النوع السادس والعشرين من أنواع علوم الحديث. وهو صفة رواية الحديث، فذكر في الفرع الرابع من هذا النوع هذه المسألة وفصّل فيها وأجاد، ونصّ كلامه فيها على النحو الآتي: «... إن لم يكن الرواي عالما بالألفاظ ومدلولاتها ومقاصدها خبيرا بما يحيل المعاني -معانيها- بصيرا بمقادير التفاوت بينهما لم تجز له الرواية بالمعنى بلا خلاف، بل يتعين اللفظ الذي سمعه، فإن كان عالما بذلك فقالت طائفة من أصحاب الحديث والفقه والأصول: لا يجوز إلاّ بلفظه. وهذا مذهب ابن سيرين، وثعلب، وأبي بكر الرازي من الحنفية، وروي عن ابن عمر، وجوّز بعضهم في غير حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -، ولم يجوّز فيه، وقال جمهور السلف والخلف منهم الأئمة الأربعة يجوز في المعنى جميعه إذا قطع بأداء المعنى، لأنّ ذلك هو الذي تشهد به أحوال الصحابة والسلف، وتدّل عليه روايتهم للقصة الواحدة بألفاظ مختلفة، وقد ورد في المسألة حديث مرفوع رواه ابن منده في معرفة الصحابة والطبراني في الحديث الكبير من حديث يعقوب بن عبد الله بن سليم بن أكيمة الليثي عن أبيه عن جدّه، قال: قلت يارسول الله: إنّي أسمع منك الحديث ولا أستطيع أن أؤديه كما أسمع منك، أزيد حرفا أو أنقص حرفا، فقال: إذا لم تحلوا حراما، ولم تحلوا حلالا، وأصبتم المعنى، فلا بأس»، فذكر ذلك للحسن فقال: «لولا هذا ما حدّثنا»، واستدلّ لذلك الشافعي بحديث: «أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرؤا ما تيسر منه»[2] قال: وإذا كان الله برأفته بخلقه أنزل كتابه على سبعة أحرف علمنا منه بأنّ الكتاب قد نزل لتحلّ لهم قراءته، وإن اختلف لقطع فيه ما لم يكن في اختلافه معنى كان ما سوى كتاب الله سبحانه وتعالى أولى أن يجوز فيه اختلاف اللفظ، مالم يخلّ معناه» [3].

---

[1] - ينظر: احتجاج النحويين بالحديث، محمود حسني محمود، مقال منشور بمجلة مجمع اللغة العربية الأردنية ـ السنة الثانية ـ العدد المزدوج 3 - 4، ص 42، نقلا من كتاب: موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث النبوي، خديجة الحديثي، ص 15 - 16.

[2] - رواه البخاري في صحيحه: كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف، ج 6، ص 184، رقم 4992، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

[3] -تدريب الرواي في شرح تقريب النواوي، ج1 ص 532 - 534.

ويضاف إلى ذلك أيضا أنّ المحدثين الذين أجازووا الرواية بالمعنى بشروط وضواط مقرون جميعهم على أنّ الرواية باللفظ والتقيد به مقدّمة وأولى من الرواية بالمعنى، كما أنّ الرواية بالمعنى في تلك الفترة كانت مقصورة على الأحاديث التي لم تدون بعد، وأمّا المدونة في المصنفات والمؤلفات فلا يجوز التصرف فيها بحال بتغيير أوإبدال، أو بزيادة أونقصان.

وعن تذرع المانعين بذريعة الرواية بالمعنى يردّ الإمام ابن الطيب الفاسي ويجيب: «أمّا الرواية بالمعنى فهي وإن كان رأي قوم فقد منعها آخرون، منهم: مالك - رضي الله عنه -، بل نسب المنع للجمهور من المحدثين والأصوليين والفقهاء، كما نقله القرطبي وغيره، بل قالوا: إنّه لا يجوز النقل بالمعنى إلاّ لمن أحاط بدقائق علم اللغة، وكانت جميع المحسنات الفائقة بأقسامها على ذكر منه، فيراعيها في نظم كلامه، ثم فتح احتمال التغيير والتصرف يؤدي إلى خرق بعيد الالتئام في جميع الأحكام، لأنّ المخالف يقول لمخالفه المستدّل في حكم بلفظ حديث: لعلّ هذا اللفظ من الراوي. وقالوا: إذا فتح هذا الباب لا يبقى لنا وثوق بحديث، ولا اطمئنان لشيء من الآثار الواردة عنه - صلى الله عليه وسلم - ووأجد المبتدعة مسلكا للطعن في جميع الأحاديث، وانتقلنا إلى النظر في دلالالتها على العمومات والإطلاقات، وغير ذلك مما يترتب على هذ القول من المفاسد العظام»[1].

فهذه أهمّ حجج وأدلّة المانعين من الاستشهاد بالحديث النبوي على القضايا النحوية ، ولقد تمّت مناقشتها وبيان بعض الاعتراضات عليها ، لننتقل بعدها لبيان مذهب المجيزين وعرض أدلتهم في المسألة .

الاتجاه الثاني: مذهب المجيزين بالاستشهاد بالحديث النبوي مطلقا

على نقيض الاتجاه الأول ذهبت طائفة من علماء النحو والعربية إلى تجويز الاستشهاد بالحديث النبوي على القواعد الكلية في اللسان العربي، ولم تر في ذلك بأسا ولا حرجا لعلمها ودرايتها بأنّ أفصح الكلام بعد القرآن الكريم كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم -، ويأتي في طليعة المجيزين لهذا الأمر نحاة الأقاليم والأمصار في القرون المتقدمة والمتأخرين، وقد أشار الإمام ابن الطيب الفاسي إلى من ذهب هذا المذهب ونحى هذا المنحى، فقال: - رحمه الله -: «وقد استدّل بالحديث في كتب النحاة طوائف منهم : الصفار، والسيرافي، والشريف الغرناطي، والشريف الصقلي في شروحهم لكتاب سيبويه، وابن عصفور، وابن الحاج في شرح «المقرّب»، وابن الخباز في شرح ألفية ابن معطي وغيرهم. وشيّد أركانه المحققون، كالإمام النووي في «شرح مسلم» وغيره. والعلامة المحقق بدر الدين الدّماميني في «شرح التسهيل». وغيره، وابن خلدون قاضي القضاة في مواضع من مصنفاته، بل خصّ هذه المسألة بالتصنيف وأجاب عن كلّ ما أورده جوابا شافيا» [2].

ففي هذا النّص دليل قاطع وبرهان ساطع على ذهاب كثير من نحاة الأقاليم والأمصار إلى تجويز الاستشهاد بالحديث النبوي، على خلاف ما قرره ابن الضائع وأبو حيّان الذي زعم هذا الأخير أنّ ابن مالك هو من ابتدع هذا

[1] -ينظر: تحرير الرواية في تقرير الكفاية، ص 100.

[2] -.ينظر: تحرير الرواية في تقرير الكفاية، ص 98.

المذهب وأنّه هو الذي أحدثه ولم يعلم له سابقة فيه، ولا مذهب. ويؤكد أبو الطيب الفاسي وجود جماعة آخرين من النحاة ارتضت العمل بالحديث النبوي والاستشهاد به على القواعد العربية غير من سبقت الإشارة إليهم. وفي ذلك يقول - رحمه الله -: «ذهب إلى الاحتجاج والاستشهاد بألفاظه وتراكيبه جمع من الأئمة منهم: شيخا هذه الصناعة وإمامها، الجمالان: ابنا مالك وابن هشام الأنصاري، والجوهري، وصاحب البديع، والحريري، وابن سيده، وابن فارس وابن خروف، وابن جني، وأبو محمد عبد الله بن بري، والسهيلي وغيرهم ممن يطول ذكره. وهذا الذي ينبغي التعويل عليه والمصير إليه، إذ المتكلم به - صلى الله عليه وسلم - أفضل الخلق، وأبلغ من أعجزت فصاحته الفصحاء على جهة العموم والاستغراق، فالاحتجاج بكلامه - عليه الصلاة والسلام - الذي هو أفصح العبارات، وأبلغ الكلام مع تأييده بأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز، من الملك العلام، أولى وأجدر من الاحتجاج بكلام الأعراب الأجلاف، بل لاينبغي أن يلتفت في هذا المقال لمقال من جار عن الوفا» [1].

وينسب ويعزى الاستشهاد بالحديث النبوي على القواعد الكلية في اللسان العربي لجماعة من النحاة منهم: الإمام الزمخشري، والإمام عز الدين الزنجاني،وأبو علي الشلوبيني، وابن يعيش، وعلم الدين السخاوي، والأشموني، والكافيجي، وابن عقيل، الشيخ خالد الأزهري.

ويعدّ الإمام السهيلي صاحب الأمالي التي تسمى بأمالي السهيلي من أكثر النحاة احتجاجا واستشهادا واستدلالا بالحديث النبوي من بين النحاة السابق ذكرهم، فقد أورد في كتابه كثيرا من المشكلات الواقعة في بعض متون السنة النبوية، وغالبها مشكلات نحوية ولغوية. وقد عالجها وأزال ما علق بها من لبس وإشكال.

وأمّا الإمام ابن مالك صاحب الخلاصة فيعدّ بحق مشيّد أركان هذا الاتجاه، والدّاعم لبنيانه. وقد وقع له بسبب سلوكه هذا الرأي والاتجاه تعنيف ولوم وتوبيخ من بعض نحاة زمانه وممّن جاء بعده على غرار صنيع أبي حيّان - رحمه الله- الذي رماه في أكثر من موضع بالخطأ في هذا الباب ووسمه بأنه صاحب من ليس له تمييز وأنّه أتى بشيء محدث لم يقله سابقوه.

والكتاب الذي نصر به ابن مالك هذا الرأي هو كتابه: «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، فقد عقده وجعله لبيان مشكلات ألفاظ الحديث النبوي الواردة في كتاب صحيح البخاري، وذلك بعد أنّ ألحّ وأصرّ عليه جماعة من المحدثين أن يوضح لهم بعض ما أشكل عليهم من المتون النبوية في صحيح البخاري، فأجابهم لمطلوبهم ووضح لهم ذلك في أحد وسبعين مجلسا، وفي ذلك يقول - رحمه الله -: «... وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء، ناظرين في نسخ معتمد عليها، فكلما مرّ بهم لفظ ذو إشكال بيّنت فيه الصواب، وضبطته على ما اقتضاه علمي بالعربية، وما افتقر إلى بسط عبارة، وإقامة دلالات أخرى أمره إلى جزء أستوفي فيه الكلام ممّا يحتاج إلى نظير وشاهد ليكون الانتفاع به عاما، والبيان تاما إن شاء الله تعالى».

[1] -.تحرير الرواية في تقرير الكفاية : ص96.

وقد بلغت جملة الأحاديث التي وجهها الإمام ابن مالك زهاء مائة وثمانين حديثا في حوالي مائة وستين مسألة، ومادة النحو هي الأكثر مقارنة بمباحث ومسائل الصرف [1].

ويأتي بعض الإمام ابن مالك - رحمه الله - الإمام ابن هشام الأنصاري فيقوي هذا الاتجاه وينصره، إذ كانت مصنفاته حافلة بالحديث النبوي يستشهد به ويقدمه على الكثير من شعر العرب ونثرها، ومن طالع القطر، والشذور، ومغني اللبيب. وغيرها أدرك ذلك وأبصر تلك الحقيقة، مع العلم بأنّه كان من تلاميذ الإمام أبي حيّان والمقربين منه، إلاّ أنّه كان شديد المخالفة له فيما ذهب إليه في هذا الموضوع.

لقد تقرّر وتبيّن ممّا أوردناه أنّ الاحتجاج بالحديث النبوي على القواعد الكلية للسان العربي مذهب كثير من النحاة، بل أغلبهم، لأنّهم اعتبروا أنّ أفضل الكلام بعد القرآن الكريم كلام النبي - صلى الله عليه وسلم -، إذ لا تعهد فصاحة ولا تعرف بلاغة أبلغ من كلامه عليه الصلاة والسلام، فليس الأمر إذن كما ذكر ابن الضائع وأبو حيّان بأنّ أغلب النحويين لم يروا إجازة الاحتجاج بالحديث النبوي، بل هو وهم منهما، وهما اللذان توليا كبر هذه القضية. وهذا ما قرّره الإمام السهيلي - رحمه الله - بقوله: «لا نعلم أحدا من علماء العربية خالف في هذه المسألة إلاّ ما أبداه الشيخ أبو حيّان في شرح التسهيل، وأبو الحسن ابن الضائع في شرح الجمل، وتابعهما على ذلك الجلال السيوطي»[2].

الاتجاه الثالث: مذهب المتوسطين بين الجواز والمنع

لقد وقفت طائفة من النحاة موقفا وسطا بين المذهبين والاتجاهين السابقين، أي مذهب المانعين مطلقا،ومذهب المجوزين مطلقا، وممّن تبنى هذا الرأي في بداية الأمر واشتهر به الإمام الشاطبي صاحب الموافقات، وذلك في شرحه على ألفية ابن مالك الموسوم بـ: «المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية»، وقد ذكر في مستهل حديثه عن هذه القضية إعراض وامتناع النحاة الأوائل عن الاحتجاج بالحديث النبوي ويعدلون عنه إلى أشعار العرب مع ما فيها من الفحش والخنى بحجة أنّ الأحاديث مروية بالمعنى وألفاظها مختلفة، ثمّ بعد ذلك قام بتقسيم الحديث النبوي إلى قسمين:

قسم اعتنى ناقلوه بالمعنى دون اللفظ، فهذا لم يقع الاستشهاد به، وقسم اعتنى ناقلوه بألفاظه لمقصود خاص فهذا يحتج به في اللسان العربي، ثمّ إنّه ذكر أنّه لم يجد من يحتج بالحديث مطلقا دون هذا التقسيم والتفصيل سوى ابن خروف ومن بعده ابن مالك، ولقد عاب على هذا الأخير عدم تفصيله هذا التفصيل الضروري، وفي ذلك يقول -رحمه الله -: «لم نجد أحدا من النحويين استشهد بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهم يستشهدون بكلام أجلاف العرب وسفهائهم، الذين يبولون على أعقابهم، وأشعارهم التي فيها الفحش والخنى، ويتركون الأحاديث الصحيحة، لأنّها تنقل بالمعنى، وتختلف رواياتها وألفاظها، بخلاف كلام العرب وشعرهم، فإنّ

---

[1] - ينظر: مقدمة تحقيق كتاب شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، طه محسين، ص 13.

[2] - ينظر: أصول التفكير النحوي، علي أبو المكارم، ص 141.

رواته اعتنوا بألفاظها، لما ينبني عليه من النحو،ولو وقفت على اجتهادهم قضيت منه العجب، وكذا القرآن ووجوه القراءات.

وأمّا الحديث فعلى قسمين:

- قسم اعتنى ناقله بمعناه دون لفظه، فهذا لم يقع به استشهاد أهل اللسان.
- وقسم عرف اعتناء ناقله بلفظه لمقصود خاص، كالأحاديث التي قصد بها بيان فصاحته - صلى الله عليه وسلم - ككتابه لهمذان وكتابه لوائل بن حجر، والأمثال النبوية؛ فهذا يصح الاستشهاد به في العربية. «وابن مالك» لم يفصل هذا التفصيل الضروري الذي لا بدّ منه، وبنى الكلام على الحديث مطلقا، ولا أعرف له سلفا إلاّ «ابن خروف»؛ فإنّه أتى بأحاديث في بعض المسائل، حتّى قال: «ابن الضائع»: لا أعرف هل يأتي بها مستدلا بها؟ أم هي لمجرد التمثيل؟

والحق أنّ «ابن مالك» غير مصيب في هذا، فكأنّه بناه على امتناع نقل الحديث بالمعنى، وهو قول ضعيف»[1].

تقريروترجيح بعض المعاصرين للمسألة المختلف فيها بين الاتجاهات الثلاث:

لقد تناول بعض المعاصرين هذه القضية العلمية أي حجية الاستشهاد بالحديث النبوي على القواعد الكلية للسان العربي، وعالجها بعد أن اطلع الاتجاهات المذكورة للعلماء في هذه المسألة. وهو الشيخ محمد الخضر حسين - رحمه الله -،وقد خلص إلى رأي محكم ودقيق مفاده أنّ هناك نوعا من الأحاديث لا يختلف في الاحتجاج بها مطلقا، وقد جعلها في ستة أنواع وهناك نوع من الحديث لا يختلف في عدم جواز الاحتجاج به بين العلماء، مع إضافته لقسم ثالث من الأحاديث أبان عن اختلاف وجهات نظر العلماء في الاحتجاج بها، وفي تقرير ذلك وتوضيحه يقول: «من الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف بالاحتجاج به في اللغة والقواعد، وهو سنة أنواع:

أولها: ما يروى بقصد الاستدلال على كمال فصاحته - صلى الله عليه وسلم - كقوله: «حمي الوطيس»، وقوله: «مات حتف أنفه»، وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، إلى نحو هذا من الأحاديث القصار المشتملة على شيء من محاسن البيان، كقوله: «فارجعن مأزورات غير مأجورات»، وقوله: «إنّ الله لا يملّ حتّى تملوا».

ثانيها: ما يروى من الأقوال التي يتعبد بها، أو أمر بالتعبد بها، كألفاظ القنوت والتحيات، وكثير من الأذكار والأدعية التي كان يدعو بها في أوقات خاصة.

ثالثها: ما يروى على أنّه كان يخاطب كل قوم من العرب بلغتهم. ومما هو ظاهر أنّ الرواة يقصدون في هذه الأنواع الثلاثة إلى رواية الحديث بلفظه.

[1] -ينظر: المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية بتصرف، ج 3، ص 401 -404.

رابعا: الأحاديث التي وردت من طرق متعددة، واتحدت ألفاظها، فإنّ اتحاد الألفاظ مع تعدد الطرق دليل على أنّ الرواة لم يتصرفوا في ألفاظها، والمراد أنّ تعدد طرقها إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - أو إلى الصحابة والتابعين الذين ينطقون الكلام العربي فصيحا.

خامسها: الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينتشر فيها فساد اللغة، ك: «مالك بن أنس»، و«عبدالله بن جريج»، و«الشافعي».

سادسها: ما عرف من حال رواته أنّهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى، مثل: «ابن سيرين»، و«القاسم بن محمد»، و« رجاء بن حيوة»، و «علي بن المديني».

ومن الأحاديث ما لا ينبغي الاختلاف في عدم الاحتجاج به، وهي الأحاديث التي لم تدون في الصدر الأول، وإنّما تروى في بعض كتب المتأخرين...

أمّا القسم الثالث الذي أضافه وذكر اختلاف وجوه نظرات العلماء في الاحتجاج به، وهو الحديث الذي دوّن في الصدر الأول ولم يكن من الأنواع الستة المبينة آنفا، وهو على نوعين:

- حديث يرد لفظه على وجه واحد.
- حديث اختلفت الرواية في بعض ألفاظه.

أمّا الحديث الوارد على وجه واحد فالظاهر صحة الاحتجاج به،نظرا إلى أنّ الأصل الرواية باللفظ، وإلى تشديدهم في الرواية بالمعنى، ويضاف إلى هذا كله عدد من يوجد في السند من الرواة الذين لا يحتج بأقوالهم، فقد يكون بين البخاري، ومن يحتج بأقواله من الرواة واحد أو اثنان، وأقصاهم ثلاثة.

ومثال هذا النوع أنّ الإمام الحريري أنكر على الناس قولهم قبل الزوال: سهرنا البارحة قال: وإنّما يقال: سهرنا الليلة، ويقال بعد الزوال: سهرنا البارحة .

والشاهد على صحة ما يقوله الناس حديث أنّ النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أصبح قال: «هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا ؟»[1]، وحديث: «وإنّ من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: عملت البارحة كذا وكذا»[2].

ففي قوله: «إذا أصبح قال: هل رأى أحد منكم البارحة»، وقوله: «ثم يصبح فيقول: عملت البارحة» شاهد على صحة أن يقول الرجل متحدثا عن الليلة الماضية، وهو في الصباح: سهرنا البارحة، أو وقع البارحة كذا.

---

[1] -رواه مسلم: كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم، ج 4، ص 1781، رقم: 2275، عن سمرة بن جندب - رضي الله عنه -.

[2] -رواه البخاري:كتاب الأدب، باب ستر المؤمن، ج 8، ص 20، رقم 6069، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

وأمّا الأحاديث التي اختلفت فيها الرواية فنجيز الاستشهاد بما جاء في رواية مشهورة لم يغمزها أحد المحدثين بأنّها وهم من الراوي.

وأمّا ما يجئ في رواية شاذة، أو في رواية يقول فيها بعض المحدثين: إنّها غلط من الراوي، فنقف دون الاستشهاد بها.

وخلاصة البحث: أنّ نرى الاستشهاد بألفاظ ما يروى في كتب الحديث المدونة في الصدر الأول وإن اختلفت فيها الرواية، ولا نستثني إلاّ الألفاظ التي تجئ في رواية شاذة، أو يغمزها بعض المحدثين بالغلط أو التصحيف غمزا لا مرد له، ويشدّ أزرنا في ترجيح هذا الرأي أنّ جمهور اللغويين وطائفة عظيمة من النحويين يستشهدون بالألفاظ الواردة في الحديث ولو على بعض رواياته» [1].

[1]- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية 3، ص 208 - 210، نقلا من كتاب في أصول النحو ص 55 - 58، وينظر: الحديث النبوي في النحو العربي، محمود فجال: ص 128 - 131.

شبهات المستشرقين في بلاغة الحديث وفصاحته

1- الشبهة الأولى : الأحاديث النبوية نتاج التطور الديني والسياسي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي

2- الشبهة الثانية: الأحاديث النبوية جلّها موضوع وأغلبها مفترى من قبل بعض الصحابة والتابعين

الشبهة الثالثة: الأحاديث النبوية أغلبها مروي بالمعنى

المحاضرة 3

إنّ مكانة السنة النبوية ومنزلتها في نفوس المسلمين بمنزلة القرآن في قلوبهم، ذلك أنّها وحي من الله تعالى، قال جلّ وعلا: «وما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى»، ولقد فرض الله عزّ وجل على عباده المؤمنين طاعة نبيه ورسوله، فأخبر أنّ طاعة نبيه من طاعة الله، قال جلّ وعلا: «من يطع الرسول فقد أطاع الله»، ولقد بيّن النبي - صلى الله عليه وسلم - شريعة الإسلام ممتثلا في ذلك أمر ربّه جلّ وعلا: «يأيّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربّك»، وكان من البيان الذي بيّنه نبينا - صلى الله عليه وسلم - شرح وتفسير ما في القرآن من مجمل الأحكام، وكان من البيان ما استقلت السنة ببيانه بلا نصّ كتاب، وكلّ ذلك من البيان عن الله، وبقيت السنة معظمة في نفوس المؤمنين لا يخالجهم فيها أدنى شك، ولاينتابهم فيها أدنى ريب، بيد أنّ أعداء الإسلام وخصومه بدءا من الرعيل الأول إلى زمان الناس هذا مافتئوا يهاجمون السنة تارة بالتشكيك في حجيتها، وأخرى بإثارة بعض الشبهات حول تدوينها، ومرّة بالطعن في حملتها ورواتها من المحدثين، وقد تتابعت وتسلسلت تلك الجهود في الطعن والتشكيك من جيل إلى جيل بدءا من طوائف الابتداع في القرون الأولى من الشيعة والخوارج و المعتزلة وبعض طوائف المتكلمين نهاية إلى المستشرقين وبعض أذنابهم من تلاميذهم البررة من أبناء المسلمين الذين تأثروا بهم، وسأحاول في هذه المحاضرة بيان بعض الشبه التي أثارها المستشرقون وبعض الكتاب المعاصرين حول السنة النبوية بما في ذلك الطعن في فصاحتها وبلاغتها، وسأكتفي بإيراد ثلاث شبه فحسب، ثمّ أقوم بردّها بالدليل والبرهان وفق قواعد وأصول البحث العلمي مبتعدا عن العواطف والتحامل والتعصب.

الشبهة الأولى : الأحاديث النبوية نتاج التطور الديني والسياسي والاجتماعي للمجتمع الإسلامي

إنّ من الشبه التي افتراها المستشرقون زعمهم وادّعاءهم أنّ هذا الرصيد الكبير من الأحاديث النبوية التي حوتها وجمعتها كتب السنة ليس كلّه ثابتا عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصدر والعهد الأول من الإسلام، وإنّما هو وليد التطورات الدينية و السياسية والاجتماعية التي مرّ بها المجتمع الإسلامي في القرنين الأول والثاني، والذي توّلى كبر هذه الفرية المستشرق اليهودي المجري جولد تسهير، ففي سبيل تقريره لهذا الرأي الفاسد يقول: «إنّ القسم الأكبر من الحديث ليس إلاّ نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للإسلام في القرنين الأول والثاني، وأنّه ليس صحيحا ما يقال من إنّه وثيقة للإسلام في عهده الأول عهد الطفولة، ولكنّه أثر من آثار جهود الإسلام في عهد النضوج» [1].

إنّ هذه الشبهة التي تولّى كبرها المستشرق اليهودي جولد تسهير أوهى من بيت العنكوت، فهي عارية عن الصحة، مفتقدة إلى شواهد الأدلة نقلا وعقلا، وما أثاره ينمي عن جهله وقلة علمه بتاريخ التشريع الإسلامي

[1] -ينظر: نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي، علي حسين عبد القادر، ص 127.

عموما، والسنة النبوية خصوصا، ذلك أنّ المتصفح لتاريخ التشريع يتضح له بجلاء أنّ النبي عليه الصلاة والسلام بيّن معالم الدين قبل أن ينتقل إلى جوار ربّه، ولم يفرّط في شيء ممّا أمر ببيانه وتبليغه، ويشهد لذلك كلّه النقل والعقل، فالمولى جلّ وعلا أخبر في كتابه بأنّ بمبعث نبيّه للثقلين أكمل لنا الدين وأتمّ علينا النعمة، فقال جلّ وعلا: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمة ورضيت لكم الإسلام دينا»

والشأن نفسه، والأمر عينه أكّده عليه الصلاة والسلام لأصحابه معلنا لهم بأنّه ما ترك لهم شيئا من معالم الدين ممّا يقرب إلى الجنة، ويباعد من النار إلاّ وعلمهم منه علما، كما أخبرهم بأنّه بيّن له معالم الدين بيانا شافيا، وترك لهم ما يتمسكون به من بعده ليثبتوا على هذا القويم، والصراط المستقيم، فقال -عليه الصلاة والسلام -: «لقد تركتم على الحنفية السمحة ليلها كنهارها»، وقال أيضا: «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي»، ففي هذه الأدلة ونظائرها برهان قاطع ودليل ساطع على أنّ النبي عليه الصلاة توّلى بيان كلّ ما أوكل إليه بيانه، وأمّا شواهد العقل فمعلوم بواقع الحال أنّه لم يكن ثمّت مشرع في حياته أحد غيره إلاّ الله جلّ وعلا فيما يوحي عليه ويأمره بتليغه، ولم يعلم أنّ أحدا شرّع الأحكام وبيّن أمور الدين في حياته غيره، وما يكون من قضايا وفتاوى رويت عن الصحابة في حياته فذلك اجتهاد منهم أقرّهم عليه وكان مستندهم في ذلك كلّه الكتاب والسنة، كما جاء في حديث معاذ عندما بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله بما تقضي، فقال بكتاب الله، قال فإن لم تجد، قال:فبسنة رسول الله، قال فإنّ لم تجد، قال: أجتهد رأي ولا آلوا، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم -. الحمد الذي وفق رسول رسول الله لما يحبّ الله ورسوله...»، فأيّ متمسك ومتشبث لهذا بعد هذا كلّه، ولو أفضنا وأطلنا في استعراض واستظهار الأدلة واستنطاقها على بيانه عليه الصلاة والسلام لمعالم الدين لأخذ ذلك منّا الشيء الكثير والكثير، ولكن حسبنا بما أملينا وبيّنا، ولعلّ أظهر ما تمسك به هذا المستشرقون هو ما لاحظه من آراء اجتهادية لبعض الصحابة والتابعين بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وثبوت أقوال عنهم في مسائل معينة نسب الفصل والقضاء فيها لأقوالهم واجتهادتهم، والجواب عن ذلك سهل لا عنت فيه ولا كلفة ولا مشقة، فيقال دفعا لذلك الدليل المتمسك به.

إنّ ما حفظ عن بعض الصحابة والتابعين من آراء فقهية، إنّما هو اجتهاد في نوازل وأقضية حدثت في زمنهم ولم يكن في القرآن أو السنة نصّ ظاهر فيها، ومعلوم لدى أولي العلم المتبصرين أنّ من سماحة شريعة الإسلام اختصاصها بخاصية المرونة والشمول، فنصوص الكتاب والسنة ثابتة، وأقضية الناس ونوازلهم متجددة، وفي نصوص الكتاب والسنة ما يستوعب تلك الأقضية والحوادث، وما كان من آراء لبعض الصحابة والتابعين في تلك النوزل، فهو اجتهاد في ضوء القرآن والسنة بإعمال النظر فيما عنّ لهم بالقياس تارة، وإلحاق النظير بالنظير في الوقائع وأمثالها تارة أخرى، وأمثلة ذلك كثيرة جدّا، وقد ورد عن عمر - رضي الله عنه - قوله لأبي موسى الأشعري: «اعرف الأشباه والأمثال، وقس الأمور، ومن صور تلك الاجتهادات، اجتهادهم في اختيار الخليفة أبي بكر - رضي الله عنه -، وحمل ذلك على توليته له صلى الله عليه وسلام لإمامة الناس في الصلاة، و اجتهادهم في جمع القرآن

في زمن عمر وعثمان - رضي الله عنهما -.وذلك من العمل بالمصالح المرسلة، وقياسهم لقتل الجماعة بالواحد على قطع الجماعة،إذا اشتركوا في السرقة، واجتهادهم في بيان حدّ شارب الخمر وإجماعهم على ذلك، وقد أشار الإمام ابن خلدون إلى طرق الصحابة في الاستدلال بقوله: «... ثمّ نظرنا في طرق استدلال الصحابة بالكتاب والسنة ؛ فإذا هم يقيسون الأشباه منها بالأشباه، ويناظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم، وتسليم بعض لبعض في ذلك الإلحاق، فإنّ كثيرا من الواقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج النصوص الثابتة، فقاسوها بما ثبت، وألحقوها بما نصّ عليه بشروط في ذلك الإلحاق ؛ تصحيح تلك المساواة بين الشبيهين أو المثلين، حتّى يغلب على الظنّ أنّ حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلا شرعيا بإجماعهم عليه، وهو القياس وهو رابع الأدلة...»[1].

وفيما ذكرناه وبيّناه بطلان لتلك الدّعاوى العريضة المفتقرة للحج والأدلة الصحيحة، وتعضيدا وتقوية لما ذكر نفسح الكلام لفضيلة الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - الذي كشف زيف وبطلان تلك الدّعاوى، فقال - رحمه الله - معلقا على كلام جولد تسهير: «... ولاندري كيف يجرؤ على مثل هذه الدعوى، مع أنّ النقول الثابتة تكذبه، ومع أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلاّ وقد وضع الأسس الكاملة لبنيان الإسلام الشامخ بما أنزل الله عليه في كتابه، وبما سنّه عليه الصلاة والسلام من سنن وشرائع وقوانين شاملة وافية، حتّى قال - صلى الله عليه وسلم - قبيل وفاته: «تركت فيكم أمرين، لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي»، وقال: «لقد تركتم على الحنفية السمحة ليلها كنهارها».

ومن المعلوم أنّ من أواخر ما نزل على النبي -صلى الله عليه وسلم - من كتاب الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » وذلك يعني كمال الإسلام وتمامه.

فما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ وقد كان الإسلام تاما لا طفلا يافعا كما يدّعي هذا المستشرق، نعم لقد كان من آثار الفتوحات الإسلامية أن واجه المتشرعين الإسلاميين جزئيات وحوادث لم ينص على بعضها في القرآن والسنة، فأعملوا آراءهم فيها قياسا واستنباطا حتّى وضعوا لها الأحكام، وهم في ذلك لم يخرجوا عن دائرة الإسلام وتعاليمه، وحسبك أن تعلم مدى نضوج الإسلام في عصره الأول، أنّ عمر سيطر على مملكتي كسر وقيصر وهما ماهما في الحضارة والمدنية، فاستطاع أن يسوس أمورهما ويحكم شعوبهما، بأكمل وأعدل ممّا كان كسرى وقيصر يسوسان بها مملكتهما، أترى لو كان الإسلام طفلا، كيف كان يستطيع عمر أن ينهض بهذا العبء ويسوس ذلك الملك الواسع، ويجعل له من النظم ما جعله ينعم بالأمن والسعادة، ما لم ينعم بهما في عهد ملكيهما السابقين ؟

على أن الباحث المنصف يجد أنّ المسلمين في مختلف بقاع الأرض كانوا يتعبدون بعبادة واحدة، ويتعاملون بأحكام واحدة، ويقيمون أسس أسرهم وبيوتهم على أساس واحد، وهكذا كانوا متحدين في العبادات والمعاملات

[1] -.تاريخ ابن خلدون، ج 1، ص 813.

والعقيدة والعادات غالبا، ولا يمكن أن يكون ذلك لو لم يكن لهم قبل مغادرتهم جزيرة العرب نظام تام ناضج، وضع لهم أسس حياتهم في مختلف نواحيها، ولو كان الحديث أو القسم الأكبر منه نتيجة للتطور الديني في القرنين الأولين للزم حتما ألاّ تتحدّ عبادة المسلمين في شمال إفريقيا مع عبادة المسلم في جنوب الصين، إذ أنّ البيئة في كل منهما محتلفة عن الأخرى تمام الاختلاف، فكيف اتحدّا في العبادة والتشريع، وبينهما من البعد ما بينهما، أمّا قيام المذاهب بعد القرن الأول وتعدّدها، فذلك بلا شك أثر للكتاب والسنة، ولمدارس الصحابة في فهم الكتاب والسنة، أمّا الكتاب فقد كان محفوظا متواترا بينهما،وأمّا السنة فلا ترى قولا لإمام من أئمة المذاهب في القرنين الثاني والثالث إلاّ وقد سبقه إليه صحابي أو تابعي، وذلك قبل أن يتطور الدين، كما زعم ذلك المستشرق تطورا بالغ الأثر، وفي هذا ما يقضي على الشبهة من أساسها...» [1].

الشبهة الثانية: الأحاديث النبوية جلّها موضوع وأغلبها مفترى من قبل بعض الصحابة و التابعين

ممّا شاع على ألسنة المستشرقين وكبار منظريهم أنّ العدد الكبير من الأحاديث النبوية مختلق مصنوع، ولم يثبت عنه -ـ صلى الله عليه وسلم -ـ بل افتراه كبار أئمة الصحابة والتابعين خدمة لأفكارهم ومعتقداتهم، وتحقيقا لأغراضهم ومقاصدهم تارة، وتزلفا وتقربا لدوائر الملك والحكم تارة أخرى، فحفظ من منثور أقوالهم أنّ طائفة من المحدّثين الأوائل اختلقوا أحاديث من عند أنفسهم نصرة للعلويين وآل البيت المعادين لحكم الأمويين، فامتدحوا آل البيت إثارة لعزائمهم وهممهم في الثوران والتألب على الأمويين، كما ثلبوا وشتموا بني أمية وأعوانهم، وفي الجانب المقابل فقد استغلّ الأمويون وبعض أعوانهم من الولاّة والأمراء طائفة من المحدثين من طبقة التابعين لوضع أحاديث يهاجمون فيها آل البيت ويحطون من عليّ وأشياعه وأتباعه، ويمدحون عثمان وبني أمية وقد رأوا في الإمام الزهري خير منصب لهذه المهمة فأوكلوا إليه القيام بأعباء تلك المهمة، فقد كان مقرّبا من عبد الملك بن مروان وهو الذي أوعز إليه القيام بذلك، ومن كبار المستشرقين الذين تبنّى هذه الفكرة ورسّخها في أذهان المستشرقين وتأثر بها بعض أذناهم العرب التغربيين المستشرق اليهودي جولدتسهير الذي يقول في ذلك: «ولم يكن الأمويون وأتباعهم ليهمهم الكذب في الحديث الموافق لوجهات نظرهم، فالمسألة كانت في إيجاد هؤلاء الذين تنسب إليهم، وقد استغل الأمويون أمثال الإمام الزهري بدهائهم في وضع الأحاديث...» [2].

كما عرض الدكتور علي حسن عبد القادر بشكل مفصّل في كتابه: «نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي» لرأي جولدتسهير في المسألة

يقول الدكتور علي حسن عبد القادر: «... وهناك مسألة جدّ خطيرة، نجد من الخير أن نعرض لها ببعض التفصيل وهي: «وضع الحديث» في هذا العصر، ولقد ساد إلى وقت قريب في أوساط المستشرقين الرأي القائل

[1] - السنة ومكانتها في التشريع: ص 196 - 197.

[2] -ينظر: دراسات إسلامية: ص

بأنّ القسم الأكبر من الحديث ليس صحيحا ما يقال أنّه وثيقة للإسلام في عهده الأول في عهد الطفولة، ولكنّه أثر من آثار جهود المسلمين في عصر النضوج»، وهذا القول منسوب للمستشرق المجري جولد تسهير في كتابه دراسات إسلامية كما ذكر الدكتور عبد القادر، ثمّ قال: «إنّه في هذا العصر الأول الذي اشتدت فيه الخصومة بين الأمويين والعلماء الأتقياء، أخذ هؤلاء يشتغلون بجمع الحديث والسنة، ونظرا لأنّ ما وقع في أيديهم من ذلك لم يكن ليسعفهم في تحقيق أغراضهم، أخذوا يخترعون من عندهم أحاديث رأوها مرغوبا فيها، ولا تتنافى والروح الإسلامية، وبرّروا ذلك أمام ضمائرهم بأنهم إنما يفعلون هذا في سبيل محاربة الطغيان والإلحاد والبعد عن سنن الدين ونظرا،لأنّهم كانوا يؤملون في أعداء البيت الأموي وهم العلويون، فقد كان محيط اختراعهم من أوّل الأمر موجّها إلى مدح البيت، فيكون هذا سبيلا مباشرا لثلب الأمويين ومهاجمتهم، وهكذا سار الحديث في القرن الأول سيرة المعارضة الساكنة بشكل مؤلم ضد هؤلاء المخالفين للسنن الفقهية والقانونية، ولم يقتصر الأمر على هؤلاء، فإنّ الحكومة نفسها لم تقف ساكتة إزاء ذلك، فإذا ما أردات أن تعمم رأيا أو تسكت هؤلاء الأتقياء أيضا تذرعت أيضا بالحديث الموافق لجهة نظرها، فتضع الحديث أو تدعو إلى وضعه، وإذا ما أردنا أن نتعرف إلى ذلك كلّه، فإنّه لاتوجد مسألة خلافية أو سياسية أو اعتقادية إلاّ ولها اعتماد على جملة من الأحاديث ذات الإسناد القوي، فالوضع في الحديث ونشر بعضه أو اضطهاد بعضه بدأ في وقت مبكر، فالأمويون كانت طريقتهم كما قال معاوية للمغيرة بن شعبة: «لا تهمل في أن تسبّ عليا وأن تطلب الرحمة لعثمان، وأن تسب أصحاب علي وتضطهد من أحاديثهم، وعلى الضّد من هذا أن تمدح عثمان وأهله وأن تقربهم وتسمع إليهم» على هذا الأساس قامت أحاديث الأمويين ضدّ علي، ولم يكن الأمويون وأتباعهم ليهمهم الكذب في الحديث الموافق لوجهات نظرهم، فالمسألة كانت في إيجاد هؤلاء الذين تنسب إليهم» [1].

الرّد على الشبهة: إنّ النّاظر في هذه الشبهة يجدها قائمة على أمرين اثنين:

أحدهما: اتهام أمراء بني أمية في دينهم والحطّ والنيل منهم على أنّهم أعداء للإسلام والدين.

الثاني: اتهام علماء الحديث من طبقة التابعين في عهد الأمويين بوضع الحديث واختلاقه.

أمّا الأمر الأوّل فمعلوم لدى جماهير أهل العلم أنّ الذي سطّر ودوّن تاريخ بني أمية هم العباسيون، وقد عملوا على تشويه سمعتهم وإلحاق كلّ منكير وقبيح بهم، لما كان بينهم من العداوة والخلاف بسبب الخلافة وشؤون الحكم، فعمد الإخباريون من أهل التاريخ بالمزايدات وإلحاق الشائعات بهم، وشاركهم وأعانهم في ذلك غلاة الروافض والشيعة الذين ناصبوا بني أمية العداء زعما منهم سرقة معاوية - رضي الله عنه - الخلافة من آل البيت.

[1] - ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي، ص 190 - 191.

ووثائق التاريخ ونصوصه شاهدة بديانة وعدالة خلفاء بني أمية الأولين من أمثال عمر بن عبد العزيز، وعبد الملك بن مروان، فقد روى ابن سعد في طبقاته عن هذا الأخير أنّه كان يلّقب بحمامة المسجد، حتّى أنّ عبد الله بن عمر لمّا سأله بعضهم قائلا: أرأيت إذا تفان أصحاب رسول الله -ـ صلى الله عليه وسلم -ـ من نسأل ؟ فأجابهم: «سلوا هذا الفتى» وأشار إلى عبد الملك، وحدّث عنه الإمام الزهري أنّه كان حريصا على إرشاد العلماء وطلبة العلم إلى تتبع السنن والآثار، ولا يقلّ عنه في ذلك مكانة ومنزلة الوليد بن عبد الملك، ففي عهده شيّدت المساجد وبنيت منارات العلم.

وأمّا الأمر الثاني من الشبهة والقائم على أنّ علماء المدينة هم من ابتدأوا بظاهرة الوضع درءا ودفعا لطغيان وقهر الأمويين فمجانب للصواب وعار عن الصحة، ولو فرض مثل ذلك على حدّ تعبير البعض[1]، فإنّه لم يكن بأرض الإسلام وديارة في تلك الحقبة علماء بالحديث في المدينة فحسب، بل كانت ديار الإسلام في مكة والشام والكوفة والبصرة والعراق ومصر تعجّ بكبار المحدثين، ولو وقفوا على شيء ممّا ادّعاه هذا المستشرق لبادر أئمة الحديث بتلك الديار للردّ على الوضاعين والكذابين في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - أمّ أنّ أئمة الحديث بتلك الديار شاركوا أئمة المدينة في وضع تلك الأحاديث واختلاقها واجتمعوا واتفقوا فيما بينهم على دسّ الحديث ووضعها، ثمّ إنّ الواقف على الشروط التي وضعها أئمة الحديث ونقاده في قبول المرويات وردّها، والمعايير التي اشترطوها في الرواة الناقلين للسنن والآثار يدرك بجلاء تهافت هذه الدّعاوى، فقد كان لهم من العلم بسنة النبي عليه الصلاة والسلام ما يميزون به الصحيح من السقيم، والمقبول من المردود، ويميزون بين الرواة الثقات والكذابين الوضاعين الذين لا تحلّ الرواية عنهم. كما أنّ المتأمل لتراجم المحدثين من طبقات التابعين وتابعيهم والمتصفح لأخبارهم وسيرهم يدرك بجلاء ما كانوا عليه من الديانة والاستقامة الذي يحول بينهم وبين الكذب على النبي - صلى الله عليه وسلم - وهم الذين حفظوا قوله عليه الصلاة والسلام: «من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»، كما أنّ الشواهد الدّالة على تحوطهم البالغ من الكذب في الحديث، وعدم استجازتهم الرواية عمّن عرف بالكذب في خاصة نفسه وعامة أمره، فضلا أن يستجيزوا الرواية عمّن ثبت كذبه على النبي -ـ صلى الله عليه وسلم - وممّا ذكروه في هذا الشأن أنّ جماعة من المحدثين جاوءا إلى شيخ ليسمعوا منه فرأوه خارجا وقد انفتلت بغلته وهو يحاول إمساكها وبيده مخلاة يريها إيّاها، فلاحظوا أنّ المخلاة فارغة، فرجعوا ولم يسمعوا منه. قالوا: هذا يكذب على البغلة، فلا نأمن أن يكذب في الحديث [2].

وأمّا ما ادّعاه من وضع المحدثين لأحاديث في فضائل أهل البيت تزلفا وتقربا إلى العلويين ونكاية في الأمويين، فهذا مثل سابقه في كونه دعاوي تفتقر إلى البينة، وما وقف عليه من أحاديث في فضائل بعض الصحابة وتمسك به، فليس له فيه أدنى متمسك، لأنّ الله جلّ وعلا هو من امتدح أصحاب نبيّه الذين ارتضاهم لصحبة رسوله

[1] - ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي، ص 199.

[2] - ينظر: الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة، عبد الرحمان بن يحي المعلمي اليماني، ص 190.

وترضى عنهم، كما وردت عنه - صلى الله عليه وسلم - أحاديث في فضائل ومناقب كثير من الصحاب غير علي -رضي الله عنه -. من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان، وغير من المبشرين بالجنة، وبعض أمهات المؤمنين، ولكنّ الذين تولوا اختلاق أحاديث في فضائل آل البيت هم الشيعة والروافض، وهم الذين سجلّ التاريخ ودوّن كثير من افتراءتهم في هذا الجانب، وتصدّى لهم بمعايير النقد الدقيقة الفاحصة فطاحل المحدثين وأبانوا زيف وبهتان تلك الموضوعات [1].

وأمّا ما ادّعاه هذا المستشرق من أنّ أمير المؤمنين معاوية بن أبي أبي سفيان هو الذي تولّى وضع الأحاديث وأوعز إلى بعض المحدثين من الصحابة بوضع أحاديث في فضائل عثمان، وأحاديث في ذمّ علي وأتباعه، فليس له دليل ظاهر وبيّن في ذلك وحسبه أنّه وقف على كلام للإمام الطبري قام بحذفه وبتره والزيادة فيه مفاده أنّ معاوية هو من أمر بوضع الأحاديث، حيث جاء في كلام الإمام الطبري ما نصه: «لا تحجم عن شتم عليّ وذريّته، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وإطراء شيعة عثمان، والإدناء إليهم، والاستماع منهم» هذا هو لفظ الإمام الطبري - رحمه الله - وظاهره على فرضية صحته يفيد أنّ معاوية - رضي الله عنه - أمر المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - أنّ يكثر في مجلسه من انتقاص عليّ وأصحابه وأتباعه وتنفير الناس من سماع مناقبه وفضائله، وأن يطري عثمان وشيعته وأتباعه ويكثر من الحديث عن فضائلهم، لكنّه لم يأمره باختلاق ووضع أحاديث ونسبتها للنبي -صلى الله عليه وسلم- كما ادّعاه جولد تسهير والذي خالف أصول وقواعد البحث العلمي من التزام الأمانة في النقل، حيث قام بتحريف هذا الكلام، فقد أبدل عبارة عبارة الإمام الطبري: والإقصاء لهم بعبارة وتضطهد من أحاديثهم فعبارة أو لفظة أحاديثهم غير موجودة في النص الذي ذكره الإمام الطبري، ولكنّه زادها من عنده ليدلل على مذهبه الفاسد وادّعائه الباطل [2].

فهذا ما تيّسر جمعه وذكره في تفيند هذه الشبهة ودحض مزاعم مدعيّها، ومن رام التوسع في ذلك واستفصال أصول الشبهة وردّها، فليطالع في ذلك ما خطّه قلم الأستاذ مصطفى السباعي - رحمه الله - في كتابه الماتع: «السنة ومكانتها في التشريع» ففي ذلك بلسم شاف ودواء كاف بعون الله وتوفيقه

-الشبهة الثالثة: الأحاديث النبوية أغلبها مروي بالمعنى

من الشبّه التي دندن حولها كثير من المستشرقين وبعض من أتباعهم العرب المتأثرين بهم، زعمهم وادّعاؤهم أنّ أغلب الأحاديث النبوية مروية بالمعنى، وأنّ المحدثين بدأ من طبقة الصحابة إلى طبقة التابعين أباحوا وجوّزوا لأنفسهم التحديث والرواية بالمعنى لما رأوا في التمسك بالألفاظ النبوية وأدائها كما حفظت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فيه نوع من العنت والمشقة، وفي أداء الحديث النبوي بهذا المسلك ضرر على السنة النبوية من

[1] - ينظر: السنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي، ج 1، ص 204.

[2] - المرجع نفسه: ج 1، ص 205.

الناحية اللغوية والبلاغية لقصور المحدثين عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم وفصاحته التي أودعها وضمنها في تلك الأحاديث، وهو الأمر الذي أدّى ببعض اللغويين لمنع الاحتجاج بالحديث النبوي على القضايا اللغوية والبلاغية، لأنّ جلّها مروي بالمعنى، وفي ذلك يقول محمود أبو ريّة في كتابه أضواء على السنة النبوية: «ولمّا رأى بعض الصحابة أنّ يرووا للناس من أحاديث النبي، ووجدوا أنّهم لا يستطيعون أن يأتوا بالحديث عن أصل لفظه استباحوا لأنفسهم أن يرووا على المعنى».

وقال في موضع آخر: « ثمّ سار على سبيلهم كلّ ممن جاء من الرواة من بعدهم، فيتلقى المتأخر عن المتقدم ما يرويه عن الرسول بالمعنى، ثمّ يؤديه إلى غيره بما استطاع أن يمسكه ذهنه معه»

وقال في موضع آخر: «وبلغ من أمرهم أنّهم كانوا يروون الحديث بألفاظهم وأسانيدهم، ثمّ يعزونه إلى كتب السنة».

وقال في موضع آخر تحت عنوان: ضرر الرواية بالمعنى من الناحية اللغوية والبلاغية «هذا بعض ما قالواه في ضرر نقل الحديث بالمعنى في الأمور الدينية، أمّا الضرر اللغوي والبلاغي فقد بيّنه في عبارة وجيزة الأديب الإسلامي الكبير السيد مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - وذلك عند كلامه على البلاغة النبوية في كتابه النفيس: «إعجاز القرآن» قال - رحمه الله -: «إنّ ألفاظ النبوة يعمرها قلب متصل بخالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي، فقد جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل، فقد كانت هي من دليله،محكمة الفصول، حتّى ليس فيها عروة مفصولة، محذوفة الفضول، حتّى ليس فيها كلمة مفضولة، وكأنما هي في اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم، وإنّما في إجادتها مظهر من خواطره صلى الله عليه وسلم...»، وقال وهو يتحدث عن نسق البلاغة النبوية: «ليس كل ما يروى على أنّه حديث يكون من كلام النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظه وعباراته، بل من الأحاديث ما يروى بالمعنى، فتكون ألفاظه أو بعضها لمن أسندت إليه في النقل، ولجواز الرواية بالمعنى لم يستشهد سيبويه وغيره من أئمة المصرين البصرة والكوفة على النحو واللغة بالحديث، واعتمدوا في ذلك على القرآن وصحيح النقل عن العرب، ولو كان التدوين شائعا في الصدر الأول، وتيسّر لهم أن يدونوا كلّ ما سمعوا عن النبي صلى الله عليه وسلم بألفاظه وصوغه وبيانه، لكان لهذه اللغة شأن غير شأنها»، ثمّ قال: «وقد كان الأصل عندهم أن يضبط المحدّث معنى الحديث، أمّا الألفاظ فمنها مالم يتفق لهم بنصه، وخاصة في الأحاديث القصار، وفي حكمه وأمثاله صلى الله عليه وسلم، ومنها ما لا يتفق فيلبسه الرواية من عبارته، حتّى قال سفيان الثوري: إن قلت لكم إنّي أحدّثكم، كما سمعت فلا تصدقوني، إنّما هو المعنى...»[1].

الرّد على الشبهة:

[1] - أضواء على السنة المحمدية: محمود أبوريّة، ص 81.

في سبيل الرّد على هذه الشبهة ينبغي التنبيه على مسائل مهمّة تشبّث وتذّرع بها هؤلاء المستشرقون في سبيل تقرير رأيهم هذا.

أولا: لقد قاس كثير من العلماء مسألة رواية الحديث بالمعنى باختلاف القراءات القرآنية، ذلك أنّ المولىّ جلّ وعلا يسّر على هذه الأمة أمر دينها وجعل لها في امتثال الشرائع والإتيان بها سعة، ومن مظاهر التيسير والسعة إنزال القرآن على سبعة أحرف بعد إنزاله على حرف أصل، ثمّ وسّع في الحروف ليسهل على الناس قراءة القرآن وتلاوته، وفي هذا الأوجه من القراءات مخالفة للحرف الأصل الأول من جهة اللفظ دون المعنى، وقد لقّن عليه الصلاة والسلام أصحابه بقراءات مختلفة ظهر فيها التبيان بينهم أثناء والتلاوة ووردت أحاديث في ذلك الشأن، وصوّب وأقرّ صلى الله عليه وسلم قراءة كلّ من أقرأه بمضمن ذلك الحرف، وفي ذلك رفع للحرج عن الأمة والعنت والمشقة في تلاوة كتاب ربّها، ومنهم من كان يقرأ بالمرادف من اللفظ دون التمسك باللفظ الأصل في أوّل الأمر، وقد نوّه ونبّه على ذلك الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بقوله: «ثبت عن غير واحد من الصحابة أنّه كان يقرأ بالمرادف، ولولم يكن مسموعا له» قال الإمام المعلمي - رحمه الله - معلقا على قول ابن حجر: «فهذا ضرب محدود من القراءة بالمعنى رخص فيه لأولئك...» [1].

فإذا كان كتاب الله عزّ وجلّ رخّص فيه بهذه الطريقة، فحديث النبي عليه الصلاة والسلام أولى بذلك، لأنّه لما أمرهم بالتبليغ عنه والتحديث لم يأمرهم بالتقيد باللفظ وإنّما قصد المحافظة على معنى ما ألقاه عليهم عند تأديته لهم بالبلاغ والتحديث، وبهذا يقول عقلاء الناس جميعا، لأنّ تحذيره عليه الصلاة والسلام لأصحابه وأمته من الكذب عليه المقصود منه الكذب في المعنى، كما يقول الإمام المعلمي لأنّه مشاهد بالحسّ أنّ الأمراء والنواب يبعثون رسلهم ويأمرونهم بتليغ شيء ما،فإذا لم يشترط عليهم المحافظة على الألفاظ فبلغوا المعنى، فقد صدقوا[2].

ثانيا: إنّ تجويز المحدثين للرواية الحديث بالمعنى أمر ليس على إطلاقه، بل مقيد بشروط وضوابط، ومن تفحّص كتب المصطلح،ونقب في مباحث الرواية يرى أنّ المحدثين قيدوا ذلك بشروط وضوابط إن روعيت جاز ذلك، وإن فقدت امتنع ذلك، يقول الإمام السيوطي - رحمه الله -: «إن لم يكن الرواي عالما بالألفاظ ومدلولاتها ومقاصدها خبيرا بما يحيل المعاني - معانيها بصيرا بمقادير التفاوت بينهما لم تجز له الرواية بالمعنى بلا خلاف، بل يتعين اللفظ الذي سمعه» [3].

ثانيا: أمّا الرواية بالمعنى فهي وإن كان رأي قوم فقد منعها آخرون، منهم: مالك - رضي الله عنه -، بل نسب المنع للجمهور من المحدثين والأصوليين والفقهاء، كما نقله القرطبي وغيره، بل قالوا: إنّه لا يجوز النقل بالمعنى إلاّ لمن

---

[1] - الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة: ج 1، ص 75.

[2] - المرجع نفسه: ج 1، ص 75.

[3] تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج1 ص 532 - 534.

أحاط بدقائق علم اللغة، وكانت جميع المحسنات الفائقة بأقسامها على ذكر منه، فيراعيها في نظم كلامه، ثم فتح احتمال التغيير والتصرف يؤدي إلى خرق بعيد الالتئام في جميع الأحكام، لأنّ المخالف يقول لمخالفه المستدّل في حكم بلفظ حديث: لعلّ هذا اللفظ من الراوي. وقالوا: إذا فتح هذا الباب لا يبقى لنا وثوق بحديث، ولا اطمئنان لشيء من الآثار الواردة عنه - صلى الله عليه وسلم - ووأجد المبتدعة مسلكا للطعن في جميع الأحاديث، وانتقلنا إلى النظر في دلالالتها على العمومات والإطلاقات، وغير ذلك مما يترتب على هذ القول من المفاسد العظام» [1].

قال الإمام المعلمي - رحمه الله -: «أقول قد قدمت ما يعلم منه أنّ الأحاديث ما يمكن أن يحكم العارف بأنّه لفظ النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها ما يحكم بأنّه بلفظ الصّحابي، ومنها ما يحكم بأنّه على لفظ التابعي، فهذه يمكن الاستفادة منها في العربية، وما عدا ذلك ففي القرآن وغيره ما يكفي» [2].

[1] -ينظر: تحرير الرواية في تقرير الكفاية، ص 100.

[2] - الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة: ج 1، ص 87.

المحاضرة 4: خصائص الأسلوب النبوي

- الخاصية الأولى: خاصية الإيجاز قلة الحروف والكلمات وكثرة المعاني
- الخاصية الثانية: الجزالة والرقة
- الخاصية الثالثة: البعد عن التكلف
- الخاصية الرابعة: ضرب الأمثال والصور

المحاضرة 4

نروم في هذه المحاضرة الرابعة من محاضرات هذا المقياس الحديث عن خصائص وسمات الأسلوب النبوي. والحديث عن هذا الشأن يقودنا ويفضي بنا للحديث عن فصاحته وبلاغته - صلى الله عليه وسلم -، فالبلاغة النبوية متربعة على عرش البيان الإنساني، وكلام النبي - صلى الله عليه وسلم - دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين، فلم تعهد البشرية أفصح وأبلغ منه -صلى الله عليه وسلم -، وما أثر عنه من روائع الكلم لم يؤثر عن أحد من البشر قاطبة. ولهذا قال أوس بن حبيب الضبي -رحمه الله-: «ما جاءنا عن أحدمن روائع الكلم ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وقد تكلم الفصحاء والبلغاء والأدباء عن بلاغته - صلى الله عليه وسلم -، فكان الإجماع منهم منعقد على كمال وتمام كلامه من جهتي الصناعة اللغوية والصناعة البيانية. وذلك لاستيفاء - كلامه صلى الله عليه وسلم- شروط الفصاحة والبلاغة وبعده عن التصنع والتكلف المبتذل، وعلوّ كلامه عن كلام الأدباء والبلغاء في الألفاظ والمعاني. وقصد الإيضاح والإبلاغ، وقد تكلّم الجاحظ عن بعض خصائص وسمات البلاغة النبوية معدّدا مناقبها التي اختصت بها، ومشيدا بمآثرها التي انفردت بها، وفي ذلك يقول -رحمه الله -: «... وأنا ذاكر بعد هذا فنّا هو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد وما أنا من المتكلفين.

فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلاّ عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيّد بالتأييد ويسّر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلّة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلّة حاجة السامع إلى معاودته. لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدم، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ إلاّ بالصدق، ولا يطلب الفلج إلاّ بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثمّ لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح معنى، ولا أبين فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم» [1].

وليس ببعيد عن الجاحظ الإمام القاضي عيّاض - رحمه الله - الذي تعرّض للكلام عن بلاغته وفصاحته، وبيان ما اختّص به كلامه وانفرد عن بقية كلام العرب من الحلاوة والعذوبة، إلى البعد عن الرّكاكة، والخلوص من

[1] - البيان والتبيين: ج 2، ص 14.

الخلط، والتنزه عن التكلف، مع الحسن والرونق في الألفاظ المنتقاة للتعبير عن المعاني، مع التأكيد على أنّ تلك البلاغة والفصاحة هي من التأييد الإلهي والتوفيق الرباني، المؤيد بالوحي. والذي يقدر به المصطفى - صلى الله عليه وسلم- على الإبلاغ والتبليغ، وهو في ذلك يتوافق مع ما ذكره الجاحظ من قبله، وفي هذا يقول: «وأمّا فصاحة اللسان، وبلاغة القول فقد كان - صلى الله عليه وسلم - من ذلك بالمحلّ الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلّة تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخصّ ببدائع الحكم، وعلّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كلّ أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، حتّى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله، من تأمل حديثه وسيّره، علم ذلك وتحققه... وأمّا كلامه المعتاد، وفصاحته المعلومة، وجوامع كلمه، وحكمه المأثورة، فقد ألفّ الناس فيها الدّواووين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يوازى فصاحة، ولا يبارى بلاغة...فجمع له صلى الله عليه وسلم بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي الذي لا يحيط بعلمه بشري»[1].

ومن الأدباء المعاصرين الذين تعرّضوا للبلاغة النبوية، وقيّمها الجمالية، مبرزين خصائص وسمات النسق البلاغي للكلام النبوي الأديب مصطفى صادق الرافعي -رحمه الله -، فقال: «... إنّك إذا نظرت إلى جهة كلام النبي - صلى الله عليه وسلم - من جهة الصنعة اللغوية رأيته مسدد اللفظ محكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وخبرته في النسق... وإذا نظرت في الجهة البيانية رأيته حسن المعرض بين الجملة، واضح التفصيل ظاهر الحدود، جيّد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، لا نرى فيه غريب ولا استكراه...»[2].

وقد استشف واستخلص من هذه الأقوال المأثورة عن أئمة الأدب وعلماء النقد والبيان جملة من الخصائص والسمات البلاغية المميزة للأسلوب النبوي في الحديث عن بقية الأساليب الأخرى، ويمكن إبراز تلك الخصائص في المعالم الآتية:

الخاصية الأولى: خاصية الإيجاز قلة الحروف والكلمات وكثرة المعاني

تعدّ هذه الخاصية أبرز وآكد الخصائص المميزة للأسلوب النبوي، وقد أشار إلى هذه الخاصية أولا، النبي - صلى الله عليه وسلم - عند ما أخبر أنّه بعث بجوامع الكلم، وخصّ ببدائع الحكم في قوله: «بعثت بجوامع الكلم» [3].

---

[1] - الشفا في التعريف بحقوق المصطفى : ج 2، ص 167 -178.

[2] -إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ج 1، ص 220 ـ 221.

[3] -أخرجه البخاري، كتاب الجهاد باب قول النبي صلى الله عليه وسلم « نصرت بالرعب مسيرة شهر» ج4، ص 54، رقم 2977، عن أبي هريرة -رضي الله عنه -، وأخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، ج1، ص 371، رقم 523، عن أبي هريرة -رضي الله عنه -:

وجوامع الكلم التي أوتيها ـ صلى الله عليه وسلم - فسّرت باختصار الكلام له، وجمع الأمور الكثيرة في الأمر الواحد، جاء عن الإمام الزهري - رحمه الله - قوله: «جوامع الكلم فيما بلغنا -أنّ الله تعالى يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين، ونحو ذلك» [1].

وفسّر الإمام الطيبي جوامع الكلم بالإيجاز عند قوله - رحمه الله -: «وقيل: إيجاز الكلام في إشباع من المعنى، فالكلمة القليلة الحروف منها تتضمن كثيرا من المعاني وأنواعا من الكلام»[2].

والإيجاز عند البيانيين والبلاغيين آكد شروط الفصاحة والبلاغة التي لا يقع امتراء وشك فيها، بل تنصيصهم وتأكيدهم عليه أكثر من غيره من دلائل البلاغة. وهو عندهم - الإيجاز- «إيضاح المعنى بأقلّ ما يمكن من اللفظ، فلا بدّ أن تكون العبارة عن المعنى واضحة»[3]، وقريب منه قول ابن الأثير: «حذف زيادات الألفاظ، ودلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد فيه، والنظر فيه إلى المعاني دون الألفاظ»[4].

والإيجاز عند البيانيين منقسم إلى قسمين:

إيجاز بالحذف. وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام عليه، ولا يكون فيما زاد معناه على لفظه.

وإيجاز لا يحذف منه شيء، وهو ضربان:

أحدهما: ما ساوى معناه لفظه، ويسمى التقدير.

والآخر ما زاد معناه على لفظه، ويسمى القصر[5].

ومن أمثلة النوع الأول من الإيجاز التي حفي بها كلامه - صلى الله عليه وسلم - ما جاء في قصة الزبير بن العوام - رضي الله عنه - والرجل الذي الأنصاري الذي خاصمه في شراح الحرة - مسير الماء من الحرة إلى السهل - التي يسقي منها النخل، فلمّا حضرا بين يدي رسول الله - صلى الله عليه سلم - قال للزبير: «اسق ثمّ أرسل الماء إلى جارك» فغضب الأنصاري، وقال: يا رسول الله إن كان ابن عمتك ؟، فتلون وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال: «اسق يا زبير، ثمّ احبس الماء حتّى يرجع إلى الجذر» [6].

وقد انطوت عبارة: «إن كان ابن عمتك» على محذوف تقديره: أن كان ابن عمتك حكمت له؟ أو قضيت له، أو ما جرى مجرى ذلك. وهذا النوع من الإيجاز بالحذف يسمى الاكتفاء بذكر السبب عن المسبب، فذكر السبب الذي هو كونه ابن عمته، ودلّ به على المسبب الذي هو الحكم أو القضاء، لدلالة الكلام عليه[7].

---

[1] -أخرجه البخاري معلقا: كتاب التعبير،باب المفاتيح في اليد،ج 9، ص 36، رقم 7013 .

[2] - شرح المشكاة، ج 11، ص 3636.

[3] - ينظر: سرّ الفصاحة، ج1، ص 211.

[4] - ينظر: المثل السائر: ج 2، ص 209.

[5] - المصدر نفسه: ج 2، ص 216.

[6] - رواه الطبراني في المعجم الكبير: ج 13، ص 107، رقم 260

[7] - ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، ج2، ص 224.

ومن المجاز بالحذف الذي زخر به كلامه - صلى الله عليه وسلم -، حذف الفعل لدلالة الكلام عليه، وممّا يدّل عليه المفعول به، فمن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام لجابر -رضي الله عنه- وكان قد سأله ممّن تزوج: «ما تزوجت؟ قال: ثيّبا ؛ فقال له: «فهلاّ جارية تلاعبها وتلاعبك»[1]، ففي هذه العبارة الأخيرة حذف الفعل لدلالة الكلام عليه، إذ التقدير: فهلاّ تزوجت جارية.

ومن أمثلة النوع الثاني. وهو الإيجاز الذي لا يحذف منه شيء، ويساوي فيه المعنى اللفظ، ما ورد في دعائه - صلى الله عليه وسلم - لأبي سلمة - رضي الله عنه -.عند موته: «اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا ربّ العالمين، وافسح له في قبره، ونوّر له فيه» [2].

فقد رأى البيانيون في هذا الدّعاء نوعا من الإيجاز المطابق لمقتضى الحال والمقام، إذ جمع فيه عليه الصلاة والسلام عليه بين ما يحتاجه أبو سلمة - رضي الله عنه - في ذلك المقام من الدعاء بالمغفرة والرحمة، مع إصلاح العقب الذي يأمله وينشده كلّ ميّت في أهله، مع شمل الجميع بالدعاء وعدم قصره وحصره فيمن قيل ذلك في شأنه، وفي هذا يقول الإمام ابن الأثير -.رحمه الله -:«وهذا الدعاء جامع بين الإيجاز وبين مناسبة الحال التي وقع فيها، فأوّله مفتتح بالمهم الذي يفتقر إليه المدعو له في تلك الحال، وهو رفع درجته في الآخرة، وثانيه مردف بالمهم الذي يفتقر إليه المدعو له من صلاح حال عقبه من بعده في الدنيا، والثالث مختتم بالجمع بين الدّاعي والمدعو له. وهذا من الإيجاز البليغ الذي هو طباق ما قصد له» [3].

وقد ذكر الإمام ابن الأثير - رحمه الله أنّ حديثه -صلى الله عليه وسلم - حافل بهذا الضرب من الإيجاز. وهو في منتهى الفصاحة والبلاغة التي لا يقدر عليها أحد من الخلق، فجلّ ما ثبت من كلام العرب على سبيل الإيجاز، فهو دون كلامه عليه الصلاة والسلام، قال - رحمه الله -: «وقد ورد في الأخبار النبوية من هذا الضرب شيء كثير، وسأورد منه أمثلة يسيرة. فمن ذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متاشبهات»[4].

وهذا الحديث من أجمع الأحاديث للمعاني الكثيرة، وذاك أنّه يشتمل على جلّ الأحكام الشرعية، فإنّ الحلال والحرام إمّا أن يكون الحكم فيهما بيّنا لا خلاف فيه بين العلماء؛ وإمّا أن يكون خافيا يتجاذبه وجوه التأويلات، فكل منهم يذهب فيه مذهبا، وكذلك جاء قوله -صلى الله عليه وسلم - : «الأعمال بالنيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى» فإنّ هذا الحديث أيضا من جوامع الأحاديث للأحكام الشرعية.

ومن ذلك قوله -صلى الله عليه وسلم-: «المضعف أمير الركب»، وقد ورد آخر هذا الحديث بلفظ آخر، فقال -صلى الله عليه وسلم - : «سيروا بسير أضعفكم» إلاّ أنّ الأول أحسن، لأنّه أبلغ معنى، فإنّ الأمير واجب الحكم

---

[1] -أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب تزويج الثيبات، ج 7، ص 5،رقم 5079.

[2] -أخرجه الإمام مسلم في صحيحه: باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، ج 2، ص 634، رقم 920، عن أمّ سلمة.

[3] -المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ج 2، ص 263.

[4] -أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ج 1، ص 20، رقم 52.

فهو يتبع، وإذا كان المضعف أمير الركب كانوا مؤتمرين له في سيرهم ونزولهم، وهذا المعنى لا يوجد في قوله: «سيروا بسير أضعفكم».

وأحسن من هذا كلّه ما ورد عنه -صلى الله عليه وسلم - في حديث مطول يتضمن سؤال جبريل عليه السلام، فقال من جملته: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»، فقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه» من جوامع الكلم، لأنّه ينوب مناب كلام كثير، كأنّه قال: تعبد الله مخلصا في نيتك، واقفا عند أدب الطاعة من الخشوع والخضوع، آخذا أهبة الحضر، وأشباه ذلك، لأنّ العبد إذا خدم مولاه ناظرا إليه استقصى في آداب الخدمة بكلّ ما يجد إليه السبيل، وما ينتهي إليه الطوق...» [1].

ونختم حديثنا عن هذه الخاصية - الإيجاز ـ من خصائص الأسلوب النبوي بما ورد عنه ـ صلى الله عليه وسلم- في قوله: «كلّ معروف صدقة»[2] فقد جمع هذا الحديث من وجوه الإيجاز ما يدهش الألباب ويطير بالعقول، فيذهب معه المتذوق لأسلوب الكلام كلّ مذهب، وذاك نظرا لما حواه من معاني غزيرة في كلمات يسيرة، فقد استهلّ - صلى الله عليه وسلم - الحديث بلفظة «كلّ» وهي من ألفاظ العموم، وذلك ليعم ويشمل كلّ ما يفعل من أعمال البرّ والخير، فيفهم منه أنّ الصدقة وثوابها غير منحصر بالتصدق بالمال الذي قد ينفرد به أهل اليسار، وبعض من وسّع الله عليهم في المال، بل هي تتعدّى ذلك. وفي هذا حث وترغيب مضّمن بأنّ كلّ واحد من الخلق بمقدوره على أن يتصدق، وقد أضاف إلى لفظة كلّ لفظة «المعروف» منكرة ومن فوائد التنكير قصد التعميم، أي شمول المعروف كلّ أصناف البرّ وأبواب الخير، والمعروف عند العلماء كما يقول الإمام الرّاغب: «اسم كلّ فعل يعرف حسنه بالشرع والعقل معا ويطلق على الاقتصاد لثبوت النهي عن السرف»[3]، وقال الإمام ابن أبي جمرة: «يطلق اسم المعروف على ما عرف بأدلة الشرع أنّه من أعمال البرّ سواء جرت به العادة أم لا»، وممّا يؤكد قصد الحديث تعميم أبواب الخير وعدم حصرها في الصدقة ما ورد من طرق أخرى للحديث بيّن فيها صلى الله عليه وسلم بعد أنواع المعروف التي يحصل بها أجر ثواب المتصدق، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «كلّ معروف صدقة، وإنّ من المعروف أن تلق أخاك بوجه طلق، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك» [4].

الخاصية الثانية: الجزالة والرقة

تعدّ الجزالة والرقة أبرز وأهمّ خصائص الأسلوب النبوي بعد خاصية الإيجاز، وقبل أن نشرع في بيان تضمن الحديث النبوي لهذه الخاصية واحتفائه بها، وجب أولاً بيان المراد بالجزالة والرقة في الكلام، تطلق الجزالة على الكلام ويراد بها شيئان، كما يقول صاحب الكليات. وذلك أنّها إذا أطلقت على اللفظ يراد بها نقيض الرقة، وإذا

---

[1] - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج 2، ص 266 - 267.

[2] -أخرجه البخاري: باب كلّ معروف صدقة، ج 8، ص 11، رقم 6021، عن جابر - رضي الله عنه -.

[3] - المفردات في غريب القرآن: ج 1، ص 561.

[4] - رواه الترمذي: باب ما جاء في طلاقة الوجه وحسن البشر، ج 3، ص 414، رقم 1970، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -.

أطلقت على غيره يراد بها نقيض القلة [1]. وجاء في لسان العرب: «ورجل جزل الرأي، وامرأة جزلة بيّنة الجزالة الرأي: جيّدة الرأي. وما أبين الجزالة فيه أي جودة الرأي. وفي حديث موعظة النساء: قالت امرأة منهنّ جزلة، أي تامة الخلق؛ قال: ويجوز أن تكون ذات كلام جزل أي قوي شديد. واللفظ الجزل: خلاف الركيك» [2].

هذا معنى الجزالة في المعنى اللغوي، وأمّا في المعنى البلاغي فهي الألفاظ القوية التي تستعمل في المواضع التي يحسن توظيفها بحسب السياق والأغراض.

وممّن أشار إلى الجزالة كمصطلح بلاغي الإمام ابن الأثير. وذلك عندما قسّم الألفاظ إلى جزلة ورقيقة، وأن كلّ واحد منها له مواضع يحسن استعماله فيها، وفي ذلك يقول: «الألفاظ تنقسم في الاستعمال إلى جزلة ورقيقة، وكل منهما موضع يحسن استعماله فيه.

فالجزل منها يستعمل في مواقف الحروب، وفي قوارع التهديد والتخويف، وأشباه ذلك، وأمّا الرقيق منها فإنّه يستعمل في وصف الأشواق، وذكر أيام البعاد، وفي استجلاب المودات، وملاينات الاستعطاف، وأشباه ذلك. ولست أعني بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعرا عليه عنجهية البداوة، بل أعني بالجزل أن يكون متينا على عذوبته في الفم , ولذاذته في السمع، وكذلك لست أعني بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفا، وإنّما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس...» [3].

وقد ضرب على ذلك أمثلة من القرآن الكريم وشعر العرب مبيّنا استعمال هذين الأسلوبين فيما يناسبهما من السياق وموضوع الكلام.

وبعد بيان المراد من الجزالة والرقة في الكلام ننتقل لعرض وبيان هذه الخاصية في حديثه صلى الله عليه وسلم، فمن ذلك قوله: ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «من ظلم من الأرض شيئا طوقه من سبع أرضين» [4].

ففي هذ الحديث من قوة الألفاظ وإحكامها ما يناسب الموضوع، إذ فيه بيان لعقوبة الظالم الغاصب الذي يغتصب من الأرض ظلما وعدوانا بأنّه غدا يوم القيامة يكلف بنقل ما ظلم منها -الأرض- إلى المحشر ويكون كالطوق في عنقه، أو أنّه يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين، أي فتكون كلّ أرض في تلك الحالة كالطوق في عنقه [5].

والذي أفاد هذه القوة والجزالة هو الفعل طوّق بضمّ أوّله على البناء للمجهول، ويلمح للجزالة أيضا في هذا الحديث التصريح بالظلم، وذكر الطوق وذكر الأرضين بصيغة الجمع، ويلمح أيضا جزالة الموضوع وهو التحذير من الظلم [6].

---

[1] -الكليات: أبو البقاء الكفوي الحنفي، ج 1، ص 353.

[2] -لسان العرب: ج 11، ص 109، مادة . جزل -.

[3] - المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر: ج1، ص 185 -186.

[4] -صحيح البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم من الأرض شيئا، ج 3، ص 130، رقم 2452.

[5] -ينظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر، ج 5، ص 104.

[6] -ينظر: الخصائص البيانية للبيان النبوي، ص 77 -78.

ومن الأحاديث التي تضمنت هذه الخاصية أيضا -الجزالة -قوله صلى الله عليه وسلم -: «اتقوا الظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشّح فإنّ الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»[1].

النّاظر في ألفاظ هذا الحديث يستشف فيها القوة والإحكام وحسن الانتقاء لها وتوظيفها في السياق الذي وضعت له، فموضوع الحديث يحذر من وخيمة الظلم وعاقبته، فاستهله بالأمر بالابتعاد عنه، ثمّ أكّد خطره وضرره على صاحبه بأداة التوكيد إنّ، ثمّ جمع الظلم بعد أن أفرده في الكلمتين السابقتين، وفي هذا التكرار لهذا اللفظ مناسبة تامة للموضوع، فهو في مقام الوعيد والتحذير والتهديد، فاستدعى ذلك تكراره وإعادته، ثمّ إنّ الظلمات المذكورة في الحديث قد حملها الشّراح على ظاهرها، فيكون الظلم غدا يوم القيامة ظلمات على صاحبه لا يهتدي به إلى السبيل، كما أنّ المؤمن نوره يسعى بين يديه ونوره مسبب عن إيمانه في الدنيا [2].

وممّا زاد الحديث جزالة وقوة إفراده للمبتدأ وجمعه للخبر دلالة على إرادة الجنس، واختلاف أنواع الظلم الذي هو سبب لأنواع الشدائد في القيامة من الوقوف في العرصات، والحساب، والمرور على الصراط، وأنواع العقاب، ثمّ عطف الشّح الذي هو نوع من أنواع الظلم على الظلم ليشعر أن الشّح أعظم أنواعه، لأنّه من نتيجة حبّ الدنيا وشهواتها، ومن ثمّ علّله بقوله: «فإنّ الشّح أهلك من كان قبلكم»، ثمّ علّله بقوله: «حملهم على أن سفكوا دماءهم» على سبيل الاستئناف ؛ فإنّ استحلال المحارم جامع لأنواع الظلم من الكفر والمعاصي، وعطفه على سفك الدماء من عطف العام على الخاص عكس الأول [3].

وبعد الحديث عن الجزالة في حديثه - صلى الله عليه سلم - لا بدّ من التعريج أيضا على السهولة والعذوبة والحلاوة في الألفاظ وهي التي تعرف بالرقة، فالكلام لا يوسم بالبلاغة حتّى يجمع فيه بين الجزالة والفخامة وبين السهولة المستعذبة، والرقة لا تعني أن ينزل الكلام إلى درجة من الركاكة حتّى يصير سفاسفا، وإنّما رقة تستدعيها وتستجلبها الأغراض والموضوعات، والأغراض التي تقتضي ذلك هي أنواع الملاطفات واستجلاب المودة، وفي باب البشارة، والإشعار بالرحمة وغير ذلك ومن أمثلة اللفظ الرقيق الذي جاء في كلامه - صلى الله عليه وسلم - قوله لابن عمر ـ رضي الله عنهما: «كن في الدّنيا كأنّك غريب كأنّك غريب، أو عابر سبيل، وعدّ نفسك في أهل القبور» [4].

فانظر إلى هذا الكلام الوارد منه - صلى الله عليه وسلم - في مقام النصح والاشفاق -لابن عمر رضي الله عنه- موصيا إيّاه بما ينبغي أن يكون عليه هو، أو غيره من العباد من ضرورة التأهب والاستعداد للموت وتقصير الأمر، فانتقى لذلك ألفاظا عذبة سهلة، فقد أمر أن يكون في هذه الدار كالغريب، وحال الغريب أن يكون مجهولا لا

---

[1] - أخرجه الإمام مسلم: كتاب البرّ والصلة، باب تحريم الظلم، ج 4، ص 1996، رقم 2578.

[2] -ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم: القاضي عياض، ج 8، ص 48.

[3] -ينظر: شرح المشكاة للطيبي، ج 5، ص 1525.

[4] - أخرجه الإمام الترمذي في سننه: باب ما جاء في قصر الأمل، ج 4، ص 145، رقم 2333، والإمام ابن ماجة في سننه: باب مثل الدّينا، ج 5، ص 232، رقم 4014.

يعرف ويأبه به. ومن خصائص الغريب أيضا أن يكون مستوحشا من الخلق الذين ينزل بهم ويكون قليل الانبساط والتوسع، مع الاحتياط والتحرز في المخالطة، ثمّ خيّره أن يكون كذلك، أو أن يكون حاله كحال المسافر عابر السبيل الذي يقصد بلدا بعيدا فينزل ليتزود، ثمّ يمضي في طريقه، لأنّه يريد قضاء وطره، كما أنّه خائف ومتوجس ممّا قد يلمّ أو يحدق به ممّا يكرهه في طريقه من تعرض قطاع الطريق له، فانظر كيف نصحه - صلى الله عليه وسلم -بضرورة التشبه بحال الغريب أو المسافر في هذه الحياة الدنيا، وأنه هو الواجب عليه في السير إلى ربّ العالمين، فهذا من رقيق كلامه وجميل ملاطفاته، وبليغ استعطافاته في مقام النصح التي يقصر عنها كلام كلّ مخلوق.

ومن هذا الباب أيضا قوله: ـ صلى الله عليه وسلم ـ «رحم الله امرأ تكلم فغنم، أو سكت فسلم» [1].

هذا الحديث من جوامع الكلم التي أوتيها - صلى الله عليه وسلم - فقد أرشد ونبّه إلى ما فيه الخير والصلاح في الدّارين. وذلك في جانب الكلام والقول، فكلّ واحد مسؤول عمّا يتلفظ به، فلينظر إذا قبل التكلم إذا كان كلامه يعود عليه بالفوز والخير والغنيمة والنفع، فليتكلم بكلام الخير الذي ينتفع به هو وغيره، فإنّ كلام الخير ينتفع به كل من سمعه، فكلامه في هذه الحالة أفضل من سكوته، وإذا كان كلامه يعود عليه بالنقيض من ذلك، فليسكت وليصمت حتّى يسلم من مغبة الإثم، أو ما قد يفضي إليه كلام، فيكون سكوته إذا سلامة عليه. وجمال الحديث في عذوبة ألفاظه وسهولتها، مع حسن الانتقاء والاختيار لها، إذا صدّره بدعاء بالرحمة، وعبّر عن مآل الكلام وعاقبته بالغنيمة والفوز، وعن مآل الصمت بالسلامة والعافية.

فهذا بعض من كلامه - صلى الله عليه وسلم -الذي استوفى سهولة الألفاظ ورقتها وعذوبتها فيما يناسبها من مقام المناسبات ومقاصد الموضوعات. ومثال هذا كثير يستشف في حسن حديثه عليه الصلاة والسلام المتضمن لجميل الملاطفات ورقائق الكلام.

الخاصية الثالثة: البعد عن التكلف

من جماليات الحديث النبوي وسماته البديعة. والذي هو من عذب كلامه، وحلو منطقه - صلى الله عليه وسلم - خلوّه وبعده التكلف والتصنّع في الكلام، كيف لا ؟ والنبي ـ صلى الله عليه سلم ـ قد نهي عن التكلف عندما قال له ربّنا جلّ وعلا: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [سورة ص: ٨٦]،

وقد ذمّ عليه الصلاة والسلام التكلف ونهى عنه، وحذّر من التشدّق والتقعب والتفيقه في الكلام، والتعمق والمبالغة في إظهار الفصاحة والتصنع بها، لأنّ ذلك كلّه داخل في باب التنطع ووالتكلف الذي نهى عنه - صلى الله عليه وسلم - أمته قولا وفعلا، فقد روى ابن مسعود عنه قوله - صلى الله عليه وسلم -: «هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون» [2]، وممّا يؤكد نهيه - صلى الله عليه وسلم - عن التكلف في القول ما أخرجه الإمام

[1] -أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: فصل في فضل السكوت عن كلّ ما لا يعنيه وترك الخوض فيه، ج 7،ص 17، رقم 4585، عن أنس رضي الله عنه -.

[2] - أخرجه الإمام مسلم في صحيحه:كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ج4، ص 2055، رقم 2670.

أحمد في مسنده عن مصعب بن سعد - رضي الله عنه - قال: «جاء عمر بن سعد إلى أبيه يسأله حاجة، فتكلم بين حاجته كلام، فقال له سعد -رضي الله عنه -: «ما كنت من حاجتك أبعد منك اليوم ؛ إنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يأتي على الناس زمان يتخللون فيه الكلام بألسنتهم، كما تتخللّ البقر الكلأ بألسنتها» [1]، قال الإمام الطيبي ـ رحمه الله - شارحا للحديث ومعلقا عليه: «شبّه إدارة لسانه حول الأسنان والفم حال التكلم ـ تفاصحا - بما يفعل البقر...» [2].

وخاصية البعد عن التكلف في كلامه عليه الصلاة والسلام قد أثبتها له أئمة البيان، وأساطين البلاغة، فقد نوّهوا بخلو كلامه وبعده عن التصنع والتكلف في إظهار الفصاحة، أو التميز بالبراعة، وممّن أكدّ ذلك الجاحظ - رحمه الله - بقوله: «... وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: «قل يا محمد وما أنا من المتكلفين». فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب...» [3].

وصنوه ومثيله في إثبات هذه الخاصية الجمالية لكلامه - صلى الله عليه ووسلم- الإمام القاضي عياض القائل في بيان ذلك: «وأمّا فصاحة اللسان، بلاغة القول فقد كان - صلى الله عليه وسلم - من ذلك بالمحلّ الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلّة تكلف...»[4].

ويتجلّى خلوّ كلامه ـ صلى الله عليه - وبعده عن التكلف في الجانب البياني من خلال نبذه وطرحه للسّجع المتكلف الذي يريد به صاحبه إظهار التفاصح، أو يقصد به إحقاق باطل، أو إضعاف حقّ في باب المحاورات، فقد أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحيها من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -: «أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا، فرمت احداهما الأخرى بحجر، فأصاب بطنها وهي حامل، فقتلت ولدها الذي في بطنها فاختصموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقضى أنّ ديّة ما في بطنها غرّة عبدٌ أو أمة، فقال وليّ المرأة التي غرمت كيف أغرم يا رسول الله، من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهلّ، فمثل ذلك يطلّ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنّما هذا من إخوان الكهان» [5].

ففي هذا الحديث ذمّ - صلى الله عليه وسلم - وعاب على هذا الأعرابي سجعه الذي قاله متكلفا قاصدا به المجادلة في الحق، مع أنّ آثار الصنعة والتكلف ظاهرة وبادية عليه، فهو لم يأت عفوا استدعاه المعنى وطلبه، فيكون بذلك محمودا، بل كان على النقيض من ذلك، قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله -: «... وقد تمسّك به من

---

[1] - مسند الإمام أحمد: مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه -، ج 2، ص 242، رقم 1517.

[2] - ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج 10، ص 3107.

[3] - ينظر: البيان والتبيين، ج 2، ص 13.

[4] - الشفا في التعريف بحقوق المصطفى: ج 1، ص 167.

[5] - صحيح البخاري: كتاب الطبّ، باب الكهانة، ج 7، ص 135، رقم: 5758، وأخرجه مسلم: كتاب القسامة، باب ديّة الجنين ووجوب الدية في القتل الخطأ، رقم 1681، ج 3، ص 1309.

كره السّجع في الكلام وليس على إطلاقه، بل المكروه منه ما يقع مع التكلف في معرض مدافعة الحق، وأمّا ما يقع عفوا بلا تكلف في الأمور المباحة، وعلى ذلك يحمل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم وسيأتي مزيد ذلك في كتاب الدعوات والحاصل أنّه إن جمع الأمرين من التكلف وإبطال الحق كان مذموما اقتصر على أحدهما كان أخفّ في الذمّ، ويخرج من ذلك تقسيمه إلى أربعة أنواع، فالمحمود ما جاء عفوا في حق ودونه ما يقع متكلفا في حق أيضا. والمذموم عكسهما»[1].

ولهذا اشترط البيانيون في السجع أو التجنيس أن يكون غير متكلف بأن يجئ سهلا يسيرا، وأن يكون المعنى هو الذي يطلبه ويستدعيه، لا أن يكلّف المتكلم نفسه عناء استحضاره، فيعتني بالألفاظ أكثر من اهتمامه واعتنائه بالمعنى، وفي ذلك يقول أمير البلاغيين وشيخهم الإمام الجرجاني: «فقد تبيّن لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة، أمر لم يتم إلاّ بنصرة المعنى، إذ لوكان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذمّ الاستكثار منه والولوع به، وذلك أنّ المعاني لا تدين في كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه، إذ الألفاظ خدم المعاني والمصرفة في حكمها، كانت المعاني هي المالكة سياستها، المستحقة طاعتها، فمن نصر اللفظ عن المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته وأحاله عن طبيعته، وذلك مظنة الاستكراه، وفيه فتح أبواب العيب، والتعرض للشين ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع، ولزموا سجيّة الطبع أمكن في العقول، وأبعد من القلق، وأوضح للمراد....»[2].

ويقول في موضع آخر: «وعلى الجملة فإنّك لا تجد تجنيسا مقبولا، ولا سجعا حسنا، حتّى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتّى تجده لا تبتغي به بدلا، ولا تجد عنه حولا»[3].

ولما كان الأمر كذلك خلا كلامه -صلى الله عليه وسلم - من السجع المتكلف المذموم، بل ورد في حديثه ودعائه عليه الصلاة والسلام سجع محمود كان على الذروة في الجمال والبيان، إذ المعنى هو الذي استدعاه، والمقام هو الذي طلبه، تحقيقا للأغراض، وتقريرا للمقاصد، فمن السجع الوارد في كلامه - صلى الله عليه وسلم -قوله: «يا أبا عمير ما فعل النغير؟!»[4].

فهذا النوع من السجع من أحسن الأنواع لقلّة كلمه وألفاظه، وقد جاء هذ السجع في مقام الملاطفة والانبساط للناس، وعلى وجه الخصوص للصبيان في ممازحته لهذا الطفل الذي مات له طائره، فأراد أن يداعبه ويواسيه بهاتين العبارتين، وهذا فيه بيان لما كان عليه - صلى الله عليه وسلم - من الخلق الحسن، وطيب العشرة، حتّى مع الصغار الذين لا يعقلون.

---

[1] -فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج 10، ص 218.

[2] - أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ج 1، ص 8.

[3] -المصدر نفسه: ج 1، ص 11.

[4] -أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس،، ج 8، ص 30، رقم 6129 .

ومنه أيضا قوله ـ صلى الله عليه وسلم - : «لا إله إلاّ الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب...» [1].

وهذا النوع من أحسن الأنواع كذلك لقلّة ألفاظه، وقد جاء في سياق ومقام التحذير من الفتن والخوض فيها. وهو في الغاية من ذلك، وتمام الحسن.

ومن دعائه - صلى الله عليه وسلم - الذي اشتمل على السجع الحسن قوله: «اللهم إنّي أعوذ بك من الأربع: من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يسمع» [2]

فهذا من السجع المحمود المستحسن في مقام الدّعاء، وهو من السّجع الذي لا يشغل القلب عن حقيقة الإخلاص في ذلك المقام، والاشتغال بالتضرع والمناجاة والإلحاح في الطلب، لأنّه سهل مستعذب غير متكلف.

ومن ذلك أيضا قوله - صلى الله عليه وسلم -: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكّاها، أنت وليّها ومولاها» [3].

فهذا الدّعاء أيضا مثل سابقه في مجيئه سهلا عذبا، حسنا مستملحا، بعيدا عن التكلف والتنطع الذي يخرج به إلى النوع المذموم، فهو لا يتنافى مع مقام الدّعاء الذي يتطلب إخلاء القلب وإفراغه من كلّ ما قد يشغله عن مقامات الدّعاء من إظهار الضراعة والافتقار واللجأ إلى الله، قال الإمام النووي -رحمه الله -: «... هذا الحديث وغيره من الأدعية المسجوعة دليل لما قاله العلماء أنّ السّجع المذموم في الدّعاء هو المتكلف، فإنّه يذهب الخشوع والخضوع والإخلاص ويلهي عن الضراعة والافتقار وفراغ القلب، فأمّا ما حصل بلا تكلف، ولا إعمال فكر لكمال الفصاحة، ونحو ذلك أو كان محفوظا فلا بأس، بل هو حسن...» [4].

ومن السجع المستحسن في كلامه -صلى الله عليه وسلم - ما شفّع فيه السجع بالطباق الذي هو لون من ألوان البديع، فمن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - في دعائه: «اللهم اغفر لي ذنبي كلّه، دقّه وجلّه، وأوّله وآخره» [5] فانظر إلى هذا السجع الذي تساوت فقرته وحسنت، إذ بدأه عليه الصلاة والسلام بالإجمال، ثمّ بالتفصيل، فقد سأل مغفرة ذنبه كلّه، ثمّ شرع يفصل، فبدأ بالدق منه. وهو الصغير، ثمّ بالجلّ منه وهو الكثير، وهذا ترقيا منه في السؤال والطلب، وقد جمع في هذا الدّعاء بين ألفاظ متضادة، وهي الدّق والجلّ، والأوّل والآخر. وهذا من الطباق المشفع بالسجع.

وما قيل في سجعه - صلى الله عليه وسلم - من أنّه كان على الذروة من الجمال والبيان، مع خلوّه من التكلف، ومناسبته للسياق والمقام، فنفس الشيء يصدق على بقية المحسنات البديعية الواردة في كلامه - صلى الله عليه وسلم -، كالطباق والمقابلة والجناس، وغيرها من سائر المحسنات، ولقد اكتفينا في هذه الخاصية- البعد عن

---

[1] - أخرجه البخاري: كتاب الفتن، باب يأجوج ومأجوج، ج 9، ص 61، رقم 7135.

[2] - أخرجه الإمام أبو داود في سننه: باب في الاستعاذة، ج 2، ص 92، رقم: 1548.

[3] - أخرجه الإمام مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شرّ ما عمل و من شرّ ما لم يعمل،ج 4، ص 2088، رقم 2722.

[4] - ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ج 17، ص 41.

[5] - أخرجه مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ج 1، ص 350، رقم 483، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -.

التكلف - بالتمثيل بمحسن السّجع فحسب، والباحث لو تتبع هذه الخاصية في بقية الصور الأخرى من صور البديع لوقف على البديع العالي المستوفي للجمال والحسن، والمتناسب مع السياق والمقام، مع الخلو من ظاهر الصنعة والتكلف.

الخاصية الرابعة: ضرب الأمثال والصور

إنّ ضرب المثل والأمثال أسلوب من أساليب التعليم والتوجيه، وذلك لما له من أثر بيّن في التوضيح والتجسيد والتقريب، والتقرير، والترسيخ، إذ به تقرب المعاني البعيدة، وتصوّر العقليات في صورة المحسوسات، حتّى كأنّ السامع يراها رأي العين، و به تكشف خبايا المعاني ومكنوناتها، مع ما فيه من براعة التبكيت وإفحام الخصوم في مقام الجدال والمناظرة، ولمّا كان شأنه كما ذكر، كان من أكثر الأساليب المنتهجة والمستخدمة في القرآن الكريم، فقد أكثر الله من ضرب الأمثال في كتابه، وأمثال القرآن تفوق أمثال العرب حكمة وبلاغة وعبرة واستدلالا، وقوة وحجة، وعن قيمة المثل ومنزلته بين أساليب الكلام يقول الزمخشري -رحمه الله -: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق حتّى تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنّه مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله -صلى الله وسلم-، وكلام الأنبياء والحكماء، قال تعالى :﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]

ومن سور الإنجيل سورة الأمثال. والمثل في كلامهم بمعنى المثل وهو النظير. يقال: مثل ومثل مثيل، كشبه وشبه وشبيه، ثمّ قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده: مثل. ولم يضربوا مثلا ولا رأوه أهلا للتسيير والتداول والقبول إلاّ قولا فيه غرابة من بعض الوجوه، ومن ثمّ حوفظ عليه وحمي من التغيير» [1].

ولمّا كان ضرب المثل في القرآن الكريم تستفاد منه أمور كثيرة في التعليم والبيان والإيضاح والتربية والتوجيه، والوعظ، والتذكير، ويحصل به من تقريب المعنى المراد، وتأكيد الفهم إلى ذهن السامع، وإحضاره من صورة الغائب إلى صورة المشاهد، وتصويره من صورة المعقول إلى صورة المحسوس، أكثر الله عزّ وجل من ضربه وتصريفه قدرا وشرعا في كتابه، ولمّا كان النبي - صلى الله عليه وسلم - منتصبا وقائما على مهمة البيان والتبليغ، فقد انتهج نهج القرآن في سلوك هذا الضرب من الأسلوب في التعليم والبيان والإيضاح، ووظّفه في أمور متعدّدة، ومناحي مختلفة في أمور الاعتقاد، وأبواب العبادات، وفصول الأخلاق والمعاملات، فالأمثال النبوية لا تقلّ عن الأمثال القرآنية في تقرير المقصود، وترتيبب المراد، وإفهام المعنى، وتمكينه من ذهن السامع، وإحضاره في نفسه.

يتحدّث ابن القيّم - رحمه الله - عن قيمة الأمثال النبوية ومنزلتها في بيان المعاني، وتقرير المقاصد والأغراض، فيقول: «... قالوا: فهذه وأمثالها من الأمثال التي ضربها رسول الله لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثّل به، فإنّه قد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه

[1] - ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج 1، ص72.

واستحضاره له باستحضار نظيره، فإنّ النّفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة، ففي الأمثال من تأنيس النفس وسرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت لها الأمثال ازداد المعنى ظهورا ووضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي {كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} [الفتح: 29] ، وهي خاصة العقل ولبّه وثمرته»[1].

وبعد هذه التوطئة في بيان منزلة وقيمة المثل في تحصيل المعنى المراد، وتقريبه في أذهان السامعين، وأنفس المخاطبين، يحسن التنبيه على مسلكه وطريقته عليه الصلاة والسلام في ضرب الأمثال وإيرادها، ومنهجه في عرضها وتقريرها، ذلك أنّ المتصفح للأمثال النبوية المضروبة، يلف سلوكه - صلى الله عليه وسلم - لطرق متعددّة، وأساليب مختلفة في ضرب المثل الذي يريد به تقرير المعنى المراد، وتحقيق المقصود منه، فتارة تراه يسند ضرب المثل لله عزّ وجل، وأخرى يقوم بإسناد المثل لنفسه وللأنبياء، ومرّة يقوم بإسناد المثل لنفسه ولأمته، وتارة يقوم بإسناد المثل للملائكة، وتارة يقوم بإسناد المثل لنفسه وللشيء الذي بعث به، فمن أمثلة إسناده المثل لله عزّ وجل، ما جاء في حديث النّواس بن سمعان - رضي الله عنه - قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله ضرب مثلا صراطا مستقيما، على كنفي الصراط سوران له أبواب مفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والأبواب التي على كنفي الصراط حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله حتّى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربّه»[2]، ومن أمثلة إسناده المثل لنفسه وللأنبياء معه، ما جاء من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -، أنّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم -قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله، إلاّ موضع لبنة من زواية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة قال فأنا اللّبنة، وأنا خاتم النبيين»[3]، ومن أمثلة إسناده المثل للملائكة ما جاء عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنها - قوله: «جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم، فقال بعضهم: إنّه نائم، وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إنّ لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنّه نائم، وقال بعضهم: وإنّ العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيا، فمن أجاب الدّاعي دخل الدار، وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الدّاعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أوّلوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنّه نائم، وقال بعضهم: إنّ العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة،

---

[1] -ينظر: إعلام الموقعين عن ربّ العالمين، ج 1، ص 182 - 183.

[2] - سنن الترمذي: أبواب الأمثال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في مثل الله لعباده، ج 4، ص 441، رقم 2859 .

[3] - صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ج 4، ص 1971، رقم: 2286 .

والدّاعي محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس» [1].

هذا ومن نماذج إسناده المثل لنفسه وذاته الشريفة ولما بعث به من الهدى والحق ما جاء من حديث أبي موسى - رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثلي ومثل ما بعثني الله به من الهدى، كمثل رجل أتى قوما فقال : رأيت الجيش بعيني، وإنّي أنا النذير العريان، فالنّجاء النّجاء، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلم فنجوا، وكذّبته طائفة فصبّحهم الجيش فاجتاحهم»[2].

هذا وإنّ المتدّبر للأمثال النبوية في كتب السنة ودواوينها يتضح له بجلاء استخدامه واستعانته صلى الله عليه بأدوات وآلات تقريبية لتوضيح المثل، فمن تلك الأداوت[3]:

- توظيفه للرّسم التوضيحي لتقرير المثل وبيانه:

من الأمثلة الموضحة لاستخدامه - صلى الله عليه وسلم - هذا الأسلوب في ضرب المثل، هو ما جاء في ثنايا كلامه الذي أراد أن يوصي به أصحابه من ضرورة تقصير الأمل، وتحذيرهم من الاغترار بطول الأمل الذي قد ينسيهم حقيقة الموت الذي هو قريب منهم، فقد روي عن أنس - رضي الله عنه - قوله: «خطّ النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا، فقال: هذا الأمل وهذا أجله، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخطّ الأقرب» [4].

- استخدام الإشارة وتشبيك الأصابع

من أساليب عرضه صلى الله عليه وسلم للمثل، هو انتهجاه لطريقة الإشارة واستخدامه لطريقة تشبيك الأصابع، وهي طريقة تعليمية لها أثرها في البيان وإفهام المراد، ومن الأحاديث المتضمنة لهذا الأسلوب ما أراد أن يبيّنه صلى الله عليه وسلم لأصحابه من مكانة ومنزلة كافل اليتيم منه غدا يوم القيامة، وبيان أجر وفضيلة من يعول يتيما، فقال: «أنا وكافل اليتيم، له أو لغيره في الجنة كهاتين، إذا اتقى وأشار بأصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام»[5].

---

[1] - صحيح البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج 9، ص 93، رقم: 7281 .

[2] -أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، ج 8، ص 101، رقم: 6482 .

[3] - ينظر: الأمثال النبوية في صحيح البخاري - دراسة لغوية دلالية -، هاني طاهر محمد حسين، ص 21 -22.

[4] - أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، ج 8، ص 89، رقم: 6418 .

[5] - أخرجه مالك في الموطأ: كتاب الشعر، باب السنة في الشعر، ج 5، ص 1383، رقم: 3491، وأخرجه الإمام أبو داود في سننه كتاب الأدب، باب في فضل من عال يتيما، ج 4، ص 338، رقم 5150، عن سهل بن سعد .رضي الله عنه -.

وممّا ورد عنه صلى الله عليه وسلم في تشبيكه لأصابع يديه ما جاء في صحيح البخاري من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنّه قال: «إنّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضها بعضا»، وشبّك أصابعه[1].

- استعانته بأدوات توضيحية لتقريب المثل:

من أسلوبه - صلى الله عليه وسلم - في ضرب المثل هو استعانته بأدوات توضيحية قاصدا بها تقريب المثل في أذهان المخاطبين، وهذه طريقة تعليمية لها أثرها في شدّ انتباه المخاطبين واستمالتهم لاستماع ما يعرض عليهم، ومن الأحاديث التي استخدم فيها رسول الله صلى الله عليه هذا النّهج والأسلوب ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم -: «غرز بين يديه غرزا، ثمّ غرز إلى جنبه آخر، ثمّ غرز الثالث فأبعده، ثمّ قال: هل تدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا الإنسان وهذا أجله، وهذا أمله، يتعاطى الأمل والأجل يختلجه دون ذلك» [2].

هذا وقبل طيّ صفحة هذه الخاصية، وإسدال السّتار عن هذه السمة، يحسن إيراد حديث، أو حديثين من أحاديثه - صلى الله عليه وسلم ـ استخدم أسلوب ضرب المثل لتقرير المقصود، وإفهام المعنى المراد، قصد بيان ما تضمنته - الأحاديث - من روائع البيان، وإبراز ما انطوت واشتملت عليه من محاسن الكلام، وإن كان هناك تخصيص مزيد من الحديث عن الأمثال النبوية في ملحق آخر عند تحليل مضامين الأمثال النبوية، وإبراز الجوانب البلاغية فيها.

أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي بردة بن أبي موسى، عن أبيه - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إمّا تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحدّاد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة» [3].

هذا مثل ضربه النبي -صلى الله عليه - وسلم للجليس الصالح والجليس السوء، وتحت هذا المثل ضروب من البلاغة، وفنون من البيان، وأوّل ما فيه هو أسلوب اللّف والنّشر الذي استخدمه - صلى الله عليه وسلم- في تقريب المعنى المراد من هذا المثل، وذلك في قوله: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد» إذ أصل الكلام: مثل الجليس الصالح كحامل المسك، ومثل الجليس السوء كحامل الكير، وفي المثل أيضا تشبيه في غاية الحسن والتمام، حيث شبّه ـ صلى الله عليه وسلم - الجليس الصالح فيما هو عليه من

[1] -صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، ج 1، ص 103، رقم: 481.

[2] - مسند الإمام أحمد: ج 17، ص 212، رقم: 11132 .

[3] -صحيح البخاري:كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، ج 3، ص 63، رقم 2101.

صلاح الحال في الدين والأخلاق بحال من يحمل معه مسكا تفوح رائحته، وشبّه الجليس السوء فيما هو عليه من فساد في الدين والأخلاق بحال من يحمل كيرا، وهي آلة مصنوعة من الجلد يستعين بها الحداد على النفخ في النّار، ووجه الشبّه مبيّن في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «لا يعدمك من صاحب المسك إمّا تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحدّاد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة»، فحامل المسك ينتفع المرء بمجالسته، ذلك أنّ الإنسان إمّا أن يشتري منه، أو يعطيه من الطيب مجانا على سبيل الإحذاء، وإمّا أن يشمّ منه رائحة طيّبة، وهذا أدنى وجوه الانتفاع بمجالسته، وأمّا الحداد نافخ الكير فمجالسته تعود بالضرر على المرء، فهو إمّا أن يحترق ثوبه أو عضوا من أعضاءه، وإمّا أن يصيبه منه ريح خبيثة منتنة، وهي أدنى درجات الضرر اللاحقة بالمجالس للحداد. وفي ضمن هذا التشبيه التمثيلي منه - صلى الله عليه وسلم - حض على ضرورة مجالسة الصالحين وصحبة الفضلاء الأخيار، لأنّ الجليس الصالح يستفيد الجالس إليه من علمه وأدبه وحسن هديه وأخلاقه الحميد، فتلك المناقب والمحاسن تنفذ إلى الجليس فينتفع بتلك المجالسة، وفي ضمنه أيضا تحذير من مجالسة أهل السوء وتجنب مخالطتهم، لأنّ شرّهم أيضا ينفذ إلى الجالسين إليهم فيتضررون بتلك المجالسة.

إنّ إيصال هذا المعنى إلى ذهن السامع وتقريبه إلى أفهام المخاطبين بهذا الأسلوب الذي استعان فيه - صلى الله عليه وسلم - بضرب المثل، لأبلغ في النفس، وأشدّ تمكينا للمعنى المراد إبلاغه من إلقاء الكلام خاليا من هذا الأسلوب.

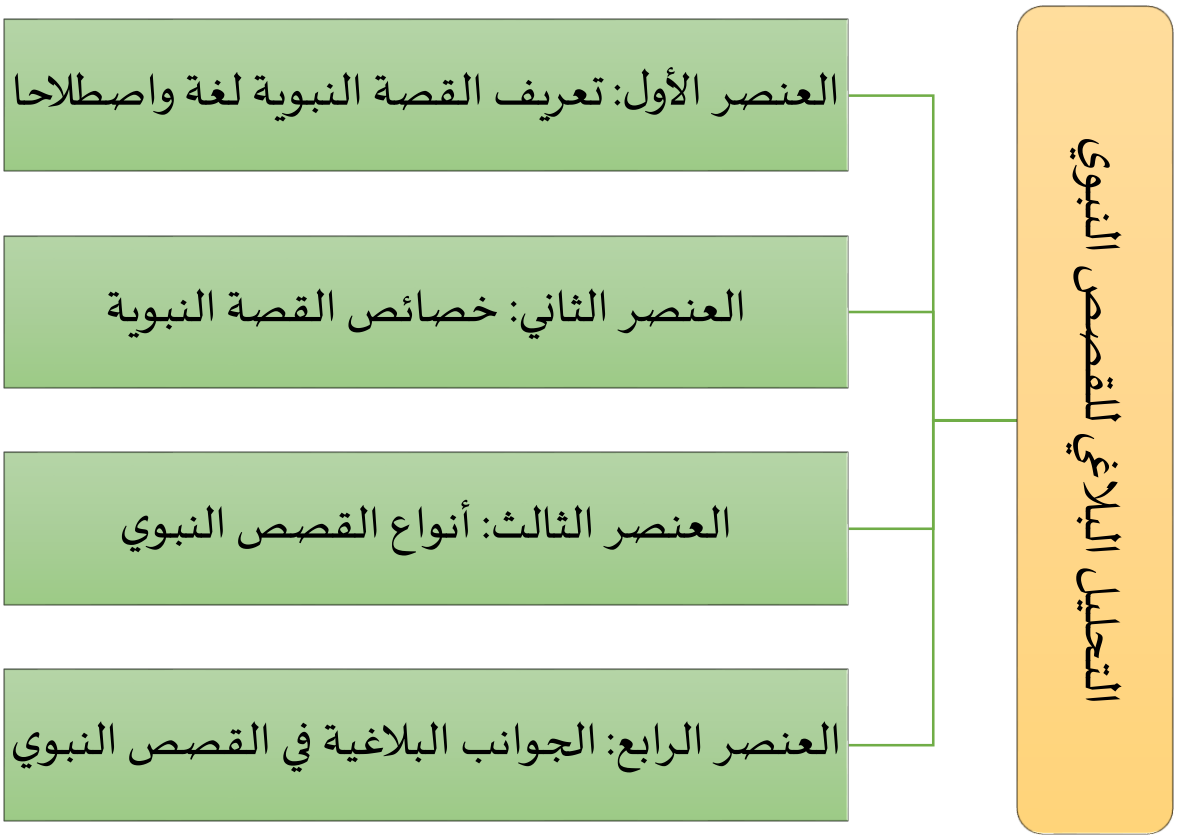
التحليل البلاغي للقصص النبوي
العنصر الأول: تعريف القصة النبوية لغة واصطلاحا
العنصر الثاني: خصائص القصة النبوية
العنصر الثالث: أنواع القصص النبوي
العنصر الرابع: الجوانب البلاغية في القصص النبوي

المحاضرة 5

لقد شغل القصص القرآني حيّزا كبيرا من موضوعات القرآن، وتربعت القصة القرآنية على مساحة واسعة من محاور القرآن. وهذا الانشغال والتوسع ناجم عن الأغراض والمقاصد التي تؤديها القصة القرآنية باعتبارها موضوعا من موضوعات القرآن. ولما لها أيضا من أثر ظاهر وجليّ في بيان هداياته وأنواره.

والقصص النبوي يأتي في المنزلة الثانية بعد قصص القرآن، وذلك لما انطوى عليه - القصص النبوي - من مقاصد جليلة، وأغراض نبيلة، فقد سلكه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسلوبا في دعوته إلى الله عزّ وجلّ، واستعان به في تقرير الحقائق وتثبيتها، وانتهجه أيضا في عرض كثير من المفاهيم والقيم وتقريبها، فالقصص النبوي امتداد لقصص القرآن في الأسلوب والمقصد والهدف، ومن هذا المنطلق كان ولا بدّ أن نتعرّض للقصة النبوية مبيّنين معناها وحقيقتها، ومنوهين بخصائصها وأغراضها، مشفعين لذلك بأمثلة من القصص النبوي الذي احتفى بأسمى درجات البلاغة، وحوى أرقى منازل البيان، وهذا ما نسعى لبيانه في هذه المحاضرة.

المسألة الأولى: تعريف القصة النبوية لغة واصطلاحا

إنّ ضبط وتحديد المدلول الاصطلاحي للقصة القرآنية يقضي أولا بالوقوف على المدلول اللغوي لهذه الكلمة، وهذا ما يوجب الرجوع لبعض المعاجم والقواميس لضبط معناها وبيان أصل اشتقاقها

القصة لفظ مشتق من مادة القصّ الذي يعني تتبع الأثر، جاء في الصحاح: «قصّ أثره تتبعه، قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وكذلك اقتّص وتقصّص، واقتصت الحديث رويته على وجهه، والاسم القصص بالفتح وضع موضع المصدر حتّى صار أغلب عليه، والقصص بالكسر جمع قصة»[1].

وجاء في لسان العرب: «قصصت الشيء إذا اتبعت أثره شيئا بعد شيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]

والقصة الخبر، وهو القصص، وقصّ عليه خبره يقصّه قصصا أورده والخبر المقصوص والقصص بكسر القاف: جمع قصة والقاص يقص القصص لإتباعه خبرا بعد خبر، وسوقه الكلام سوقا»[2].

أفادت المادة اللغوية من هذين المعجمين أنّ القصة مشتقة من مادة القصّ الذي يعني تتبع الأثر.

وأمّا القصة النبوية في الاصطلاح، فقد عرّف كثير من الباحثين المشتغلين بالقصص النبوي القصة النبوية، ومن بين تلك التعريفات:

---

[1] -الصحاح في اللغة: إسماعيل بن حماد الجوهري،- مادة قصص -، ج 3، ص 115.

[2] - لسان العرب: ابن منظور، - مادة قصص -، ج 5،ص 3650 - 3651.

القصة النبوية: هي تتبع للأحداث الماضية، تتناول أخبار الماضين، وأحداث الأولين، سواء كان من الأنبياء، أو من أقوامهم قصد إبراز جانب العبرة والعظة من ذلك، سيقت لتحقيق أغراض دينية بحتة، وغرس القيم والسلوك بمضمون هادف...» [1].

المسألة الثانية: خصائص القصة النبوية

بعد بياننا لمفهوم القصة النبوية، وإيضاحنا لماهيتها، نروم بعد ذلك الإفصاح والإبانة عن أهم الخصائص والسمات التي تتمايز بها القصة النبوية عن غيرها من أنواع القصص البشري.

الخاصية الأولى: الصدق والواقعية:

إنّ أهمّ خاصية تختص بها القصة النبوية وتتمايز بها عن غيرها من أنواع القصص، هو صدقها وواقعيتها، وفي ذلك صنو القرآن ومثله، فكلاهما من مشكاة الوحي،قال تعال :﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ ،يوسف: ١١١، وقال جلّ وعلا :﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ ،[النجم: ٤

فليس في القصص النبوي شيء من الاختلاق والافتراء، ولا مجال فيه لسبح الخيال والتوهم، ولا سبيل للخرافات والأساطير إليها، بل كلّها إخبار عن حقائق واقعة، وأحداث حقيقة الوجود والوقوع، فهي على حدّ تعبير البعض: «إخبار عن أمور حدثت، وشخصيات وجدت، ليس فيها اختراع لشخصيات، أو تلفيق للحوادث» [2].

ذلك أنّ إخبار النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أمور غيبية، أو أخبار مستقبلية، أو وقائع وأحداث ماضية قصد به تحقيق أغراض وأهداف من ثبيث العقائد في نفوس المؤمنين، وتأنيس وتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنين، وتهذيب النفوس المؤمنة وتربيتها، واستخلاص الدورس ومكامن العظة والعبرة ممّا يقصّ، فالقصص النبوي كلّه مطابق للواقع، وجلّه صدق وحق، وليس فيه شيء من ضروب الخيال والخرافة، فهو على حدّ تعبير البعض: «... بعيد كلّ البعد عن الرؤى والخيالات التي تسيطر على معظم المصادر الأدبية بشعرها ونثرها، لأنّ هذه المصادر تعتمد على الخيال والتحليق والتوهم، بل إنّ القصص الأدبي لا يحسن إلاّ بخلط الحقيقة بالخيال، وليس الأمر كذلك في كلام النبي صلى الله عليه وسلم» [3].

---

[1] - القصة في الحديث النبوي - دراسة أسلوبية -: كرمية حجازي، ص 66 - 67.

[2] - ينظر: خصائص القصة الإسلامية، مأمون فريز جرار، ص 229.

[3] - بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي: سهام سديرة، ص 21.

الخاصية الثانية: وضوح الهدف والمقصد

إنّ القصة النبوية تشارك قصص القرآن في تحقيق جملة من الأغراض والأهداف من الدّعوة إلى الله تعالى، وهداية الناس إلى شريعة الإسلام وتعاليمه، فهي - القصة النبوية - لم تسق لمجرّد التسلية والترويح، أو تجديد النشاط،ودفع السآمة والملل، كبقية القصص الأخرى، بل تميّزت واتسمت بما انفردت به القصة القرآنية من وضوح الهدف والغرض من إيرادها وعرضها، فالقصص النبوي سيق لتحقيق أغراض أسمى ومقاصد أغلى، يأتي في طليعتها انتهاجها أسلوبا للدعوة إلى الله تعالى في إيضاح الأفكار، وإرساء القيم والمبادئ الدينية، وتربية النفوس المؤمنة بحملها على تلك القيم والسمو بها روحيا وأخلاقيا، فالقصص النبوي قصص هادف.

الخاصية الثالثة: بلاغة النّظم

إنّ أهمّ خاصية وميزة اختصت بها القصة النبوية، وخالفت فيها بقية القصص البشرية، تفردها ببلاغة النظّم ودقة التركيب، ونعني بذلك ورود ألفاظها بطريقة سهلة موجزة واضحة بعيدة عن الإغراب وصور التعقيد، تجمع في ذلك بين دقة الإيجاز مع استيفاء المعنى، وتحاشي الإسهاب والإطناب الممل، يطبع تراكيبها القوة والنظم الممتماسك، مع السلاسة، فالقارئ لها يلمح فيها هذه الخاصية بجلاء، والمتابع لها قراءة ومطالعة على حدّ تعبير البعض: «يسترسل معها في متابعة جيدة، لا يشعر خلالها بأدنى عناء، أو تعثر»[1].

الخاصية الر ابعة: الأصالة

من سمات القصص النبوي تفرّده وتميزه بالأصالة عن باقي القصص النثري البشري، ونعني بالأصالة أصالة الموضوع وقوته وتنوعه، ذلك أنّ النّاظر في القصص النبوي بإمعان وتأمل يدرك احتواء مضامينه لجملة من القيم والمبادئ المختلفة والمتنوعة حسب المقاصد والأغراض، ويستشف المطالع للقصص النبوي أيضا عمق تأثيره في النفوس البشرية وتحكمه في الإنفعالات العاطفية نظرا لما يحمله من أفكار عميقة ومعاني دقيقة، يمكن أن تتغلل إلى أعماق النفس البشرية فتلامسها وتؤثر فيها بطريقة عجيبة غريبة، فالعمق والغني في أفكار القصة النبوية جعلها متميزة فريدة في موضوعاتها، نبيلة في غايتها، شريفة في مقاصدها[2].

فهذا بعض ما حضرنا وأمكننا إيراده وبيانه من خصائص القصة النبوية، والحديث في هذا الباب واسع، وفيما ذكرنا إن شاء الله كفاية، يتمّ به الغرض، ويحصل به المقصود.

المسألة الثالثة: أنواع القصص النبوي

---

[1] - ينظر: القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية، محمد بن الحسن الزير، ص 427.

[2] -بلاغة التمثيل في القصص النبوي: نورة بنت عبد الرحمان الحربي، ص 490، وينظر: القصة في الحديث النبوي - دراسة أسلوبية -: كرمية حجازي، ص 75، وينظر: القصص في الحديث النبوي، محمد بن الحسن الزير، ص 379.

بعد أن بيّنا في المسألة الماضية آنفا أهمّ وأبرز خصائص القصص النبوي، نتعرّض في هذه المسألة لبيان أنواع القصص النبوي، ذلك أنّ المنظرين للقصة النبوية وخصائصها الجمالية والفنية يرون أنّ القصة النبوية، تنقسم إلى خمسة أنواع، على النحو الآتي:

أولا: القصة التاريخية[1]

يراد بالقصة التاريخية، أو القصص التارخي ذلك القصص الذي يعنى ويهتمّ بعرض أحداث ووقائع جرت ووقعت في الزمن الماضي، شاملا في ذلك ما تعلق بقصص الأنبياء، أو بأخبار الأنبياء والرسل مع أقوامهم، كقصص بني إسرائيل، وقصص موسى مع الخضر، وقصص نبي الله نوح، وهود، ولوط، وصالح، وسليمان، وغيرهم من الأنبياء والرسل، وهذا النوع من القصص الغرض من عرضه وذكره في الغالب هو بيان سنن الله عزّ وجلّ في نصرة الأنبياء والمرسلين وأقوامهم على المكذبين المعاندين لدين الحق، كما أنّ الغرض منه في الغالب هو تسلية الفئة المؤمنة مع النبي - صلى الله عليه وسلم، وتثبيت قلوبهم على الحق حتّى لا يسري إليهم الضعف والخوف فيرتدوا عن دينهم الحق، إلى غير ذلك من القيّم والمبادئ التي جاءت القصة النبوية تقررها وترسخها.

ثانيا: القصص الغيبي

من أنواع القصص النبوي، القصص الغيبي، ويراد به القصص الذي يتناول وقائع وأحداث مردها ومرجعها للغيب، ويتحدث عن أمور مستمدة من عالم الغيب، لا سبيل لمعرفتها إلاّ عن طريق الوحي، وذلك كالقصص النبوي الوارد في رؤية الله تعالي يوم القيامة، وشفاعة النبي - صلى الله عليه وسلم -لأمته يوم القيامة، والصراط وكيفية المرور عليه، والقصد من ورود مثل هذا القصص في الغالب هو بيان صدق نبوّته - صلى الله عليه وسلم - وتعميق الإيمان في نفوس السامعين، مع الإفادة من ذلك في كثير التوجيهات التربوية والإيمانية [2].

ثالثا: القصص التمثيلي

يراد بالقصة النبوية التمثيلية تلك القصة التي تستهل بتشبيه تمثيلي، أو بمثل يضرب للدلالة على مشابهة أحوال المخاطبين للمضروب بهم المثل، مع إمكانية وقوع تلك الوقائع والأحداث وتكررها أكثر من مرّة، ومن صوّر هذا النمط من القصص النبوي، حديث فرح الله تعالى بتوبة عبده، وحديث السفينة، وحديث تشبيه حاله -صلى الله عليه وسلم - في ختم النبوة به، كالبنيان الذي نقص بنيانه بنقص لبنة منه وأتمّ -صلى الله عليه وسلم - ذلك البنيان بكونه هو اللبنة المتممة لحسن ذلك البناء، وغير ذلك كثير.

---

[1] - ينظر: خصائص القصة الإسلامية، مأمون جرار، ص 113 -117، وينظر: من بلاغة سرد القصص النبوي، مفيدة محمد حسن، ص 708.

[2] - ينظر: بلاغة التمثيل في القصص النبوي: نورة بنت عبد الرحمان الحربي، ص 491، وينظر: من بلاغة سرد القصص النبوي، مفيدة محمد حسن، ص 758، وينظر: الأساليب التعليمة في السنة النبوية، ص 198 -199.

رابعا: القصص الواقعي

من ألوان القصص النبوي وصوره القصص الواقعي، ويراد به القصص الذي يروي أحداثا واقعية حدثت له عليه الصلاة والسلام في حياته ومراحل دعوته في محطات مختلفة، وملابسات وظروف متنوعة، ومن نماذج هذا النوع من القصص: قصة حادثة شقّ صدره - صلى الله عليه وسلم - في صباه لما كان مسترضعا في ديار بني سعد عند حليمة، و قصة الإسراء والمعراج.

خامسا: القصة الطويلة

من أنماط القصص النبوي القصة الطويلة، وهي التي يعنى فيها بتناول حيّز كبير من التفاصيل والأحداث، ويهتمّ فيها بإبراز كثير من الشخصيات، مع الحرص على رسم سماتها وملامحها، وتصوير الخواطر والانفعالات، فتتسع بذلك القصة لجوانب أرحب، ووقائع أفسح[1].

ومن أمثلة هذا النوع من القصص: قصة أصحاب الأخدود، وقصة أصحاب الغار، وقصة الأقرع والأبرص والأعمى، وقصة الذي قتل تسعة وتسعين نفسا.

سادسا: القصة القصيرة

من ألوان القصص النبوي، القصة القصيرة، وهي التي تهتم بتناول حادثا من الأحداث، فتعرضه بصورة سريعة، بتعبيرات وألفاظ مركزة، ولا تعنى بتناول التفاصيل الدقيقة وعرض الجزئيات، وغايتها الإيحاء السريع والتأثير القوي في أقصر وقت، ومن أقرب طريق [2]، ومن أمثلة هذا القصص: قصة المرأة التي دخلت النار في هرّة، وقصة المرأة البغي من بني إسرائيل التي سقت كلبا فغفر الله لها، وغير ذلك من القصص.

المسألة الرابعة: الجوانب البلاغية في القصص النبوي

بعد أن بيّنا آنفا أنواع القصص النبوي، نروم في هذه المسألة إيضاح وإبراز بعض الجوانب البلاغية والملح البيانية في بعض القصص النبوي، وقد وقع اختيارنا على قصة أصحاب الغار.

أولا: قصة أصحاب الغار

[1] - ينظر: فنّ القصة، ص 13، وبلاغة التمثيل في القصص النبوي: نورة بنت عبد الرحمان الحربي، ص 492، والقصة في الحديث النبوي دراسة أسلوبية: كريمة حجازي، ص 87.

[2] - ينظر: بلاغة التمثيل في القصص النبوي، نورة بنت عبد الرحمان الحربي، ص 492،

قال الإمام البخاري - رحمه الله -: «حدّثنا إسماعيل بن خليل، أخبرنا علي بن مسهر، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر - رضي الله عنهما -، أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «بينما ثلاثة نفر ممّن كان قبلكم يمشون، إذا أصابهم مطر، فأووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض: إنّه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلاّ الصدق، فليدع كلّ رجل منكم بما يعلم أنّه قد صدق فيه، فقال: واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنّه كان لي أجير عمل لي على فرق من أرّزٍ، فذهب وتركه، وأنّي عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، فصار من أمره أنّي اشتريت منه بقرا، وأنّه أتاني يطلب أجره، فقلت: اعمد إلى تلك البقر فسقها، فقال لي: إنّما لي عندك فرق من أرّزٍ، فقلت له: اعمد إلى تلك البقر، فإنّها من ذلك الفرق، فعمد إليها فساقها، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنّا، فانساحت عنهم الصخرة، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنّ لي أبوان شيخان كبيران، فكنت آتيهما كلّ ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عليهما ليلة، فجيت وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، فكنت لا أسقيهم حتّى يشرب أبواي، فكرهت أن أوقظهما، وكرهت أن أدعهما، فيستكّنّا لشربتهما، فلم أزل أنتظر حتّى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنّا، فانساحت عنهم الصخرة حتّى نظروا إلى السماء، فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنّه كان لي ابنة عمّ، من أحبّ الناس إليّ، وأنّي راودتها عن نفسها فأبت، إلاّ أن آتيها بمائة دينار، فطلبتها حتّى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلمّا قعدت بين رجليها، فقالت: اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلاّ بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنّا، ففرّج اللهم عنهم فاخرجوا»[1].

لقد حوت هذه القصة من أفانين البلاغة دررا، ومن وجوه البيان ملحا ولطائف عديدة، وأوّل ما ينبغي بيانه قبل عرض وتفصيل تلك الوجوه البلاغية وجب التنبيه على نوع القصة، فهي على ما حرّرناه سابقا من ألوان القصص النبوي، فهي تندرج ضمن القصص التاريخي، ذلك أنّ أحداثها وقعت في العهد القديم في زمن بني إسرائيل، وأمّا عناصر وشخصيات القصة فهم ثلاثة نفر من بني إسرئيل،، وأمّا عن أحداثها ووقائعها ومكانها، فإنّها تتلخص عند نزول مطر غزير وافق خروج هؤلاء الثلاثة في مشي، فحبسهم المطر وألجأهم إلى الاحتماء بغار، فأطبقت عليهم صخرة سدّت فرجة الغار، فمنعهم من الخروج، وإنّما مهدّنا بهذا التمهيد، لأنّ معرفة زمان القصة ومكانها، كما يقول البعض من الأهمية بمكان، إذ بهما تتضح الصورة، ويتبيّن الغرض المقصود منها، لأنّ كلّ حادثة لا بدّ أن تقع في مكان معيّن، وزمان بذاته، وهي بذلك ترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما، والارتباط بكلّ ذلك ضروري لحيوية القصة ؛ لأنّه يمثل البطانة النفسية للقصة[2].

[1] - صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، ج 4، ص 172، رقم 3465.

[2] - ينظر: الأدب وفنونه .دراسة ونقد.، عزّ الدين إسماعيل، ص 108 - 109.

وأوّل ما اشتمل عليه الحديث من درر علم المعاني، هو التفصيل بعد الإجمال الوقع في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «بينما ثلاثة نفر» فهذا إجمال لشخصيات القصة وعناصره، تبعه تفصيل لأحوالهم وما وقع لهم، فبعد أن أشار إليهم إجمالا، فصّل في قصة كلّ واحد منهم وعمله الذي عمله، وكان سببا في نجاتهم وخلاصهم، ممّا هم فيه.

وثاني ما احتوى عليه الحديث من درر البيان، هو الاستعارة المكنية في قوله: «أصابهم المطر» حيث بيّنت هذه العبارة حبس المطر لهم بسبب غزارته، ويجوز أن تكون استعارة تبعية،وذلك في تشبيه نزول المطر بغزارة بالأخذ في الفعل «أصابهم»، والتعبير بالفعل «أصابهم» متضمن لكناية عن صفة وهي شدّة غزارة المطر.

وثالث ما انطوى عليه الحديث من أفانين البيان هو الكناية في قوله عليه الصلاة والسلام: «فانطبق عليهم» فالتعبير بالإطباق كناية عن الحالة التي صاروا إليها من الانغلاق التام للباب عليهم، وانحباسهم داخل الغار.

ورابع ما حواه الحديث من مباحث المعاني هو: أسلوب التنكير الوارد في قصة الرجل الذي استأجر أجيرا، وذلك في تنكير لفظة الأجر قصد إفراده، لأنّ المقام لا يستدعي ويستلزم تعريفه، وتحديد شخصه، فهو شخص ما استأجره للعمل بأجر معلوم، ومحدد، لأنّ الإجارة المجهولة غير صحيحة فحدّده بقوله: «فرق أرز»[1].

وخامس ما تضمنه الحديث أيضا من نفائس علم المعاني هو الالتفات المتكرر في القصص الثالث، وذلك في انتقال أسلوب الكلام من الخطاب إلى أسلوب الغيبة، وذلك في عبارة «فإن كنت تعلم أنّي فعلت ذلك من خشيتك ففرّج عنّا»، وقد كان الكلام قبل هذا جاريا في مساق الخطاب. والغرض من هذا الأسلوب هو التنويع وتنشيط السامع للإقبال على ما يلقى إليه، ودفع السآمة والملل عنه.

وسادس ما اشتمل عليه الحديث من مباحث البيان الكناية في عبارة «شيخان كبيران» فهي كناية عن شدّة ضعفهما وحاجتهما لمن يخدمهما، ويقوم على أمورهما، فهي كناية عن صفة الضعف.

وسابع ما انطوى عليه الحديث أيضا من صور المعاني الكناية في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «وعيالي يتضاغون من الجوع »، ومعنى يتضاغون يصيحون، من الضغو، والمصدر ضغا، تقول العرب: ضغا الذئب يضغو ضغوا وضغاء، هو صياحه، وتضوره إذا جاع، والاسم الضغاء[2]. ففي هذه العبارة كناية عن بكائهم وصياحهم من شدّة الجوع، فتكون الكناية كناية عن صفة وتصوير حال.

وثامن ما اشتمل عليه الحديث من نفائس علم المعاني مجيء الكلام وروده على خلاف مقتضى الظاهر في القصص الثلاث، وذلك في عبارة: «إن كنت تعلم» قال الإمام بدر الدين العيني: «قوله: إن كنت تعلم على خلاف

[1] - ينظر: من بلاغة سرد القصص النبوي - قصة أصحاب الغار أنموذجا ،، مفيدة محمد حسن، ص 44.

[2] - ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ج 2، ص 907، مادة: -ضغو -

مقتضى الظاهر، لأنّهم كانوا جازمين بأنّ الله عالم بذلك، فلا مجال لحرف الشك فيه، وأجيب: بأنّهم لم يكونوا عالمين بأنّ لأعمالهم اعتبارا عند الله، ولا جازمين، فقالوا: إن كنت تعلم لها اعتبارا ففرّج عنّا»[1].

وتاسع ما حواه الحديث من درر البيان في قصة الرجل الذي راود ابنة عمّه عن نفسها، الكناية في قوله: «فلمّا قعدت بين رجليها» ففي هذه العبارة كناية عن تمكنها منها تمكن المعاشر والمجامع لزوجته، وهي كناية صفة، وفي القصة نفسها كناية في قوله: «ولا تفضّ الخاتم إلاّ بحقه» ففي هذه الجملة كناية عن موصوف، وهي أنّها لا تزال بكرا لم تفتض بعد، فطالبته بالفض بالحق والسبيل الشرعي. وهو الزواج، وفي ضمن هذا ردع وزجر له، لعلّه يرعوي عمّا قصده ونواه، وفي قوله أيضا: «فقمت وتركت المائة دينار» كناية عن تركها ورجوعه عمّا همّ به من فعل الفاحشة.

فهذه أهمّ الدرر والملح البلاغية التي حوتها وانطوت عليها هذه القصة البليغة من القصص النبوي، وفي ضمن ذلك من الدروس المستفادة من القصة، هو بيان أثر الأعمال الصالحة في استجابة الدعاء والتخليص من الكرب التي تلمّ بالعبد وتنزل به، وشرط الإخلاص في قبول تلك الأعمال والمجازاة عليها، مع مافي القصة من حثّ وتوجيه على لزوم برّ الوالدين والإحسان إليهما وتقديمهما على الزوجة والأولاد، وضروة إيفاء الأجير حقه، ومنزلة العفة، والإحجام والإقلاع عن الفاحشة والرذيلة، واستحضار عظمة الله ومراقبته سرا وعلنا فإنّ ذلك من الأسباب الموجبة لمحبة الله للعبد والتفريج عنه.

[1] - عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ج 16، ص 52.

التحليل البلاغي للخطب النبوية
العنصر الأول: تعريف الخطابة
العنصر الثاني: أهمية الخطابة ومكانته في الدعوة إلى سبيل الله
العنصر الثالث: التحليل البلاغي لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع
العنصر الرابع: التحليل البلاغي لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في معشر الأنصار بعد غزوة حنين

المحاضرة 6

المسألة الأولى: تعريف الخطابة

إنّ ضبط وتحديد المدلول الاصطلاحي للخطابة يقضي أولا بالوقوف على المدلول اللغوي لهذه الكلمة، وهذا ما يوجب الرجوع لبعض المعاجم والقواميس لضبط معناها وبيان أصل اشتقاقها

الخطابة في اللغة: مصدر خطب يخطب خطبة وخطابة، جاء في القاموس المحيط: «وخطب الخاطب على المنبر خطابة بالفتح، وخطبة بالضم، وذلك الكلام: خطبة أيضا، أو هي الكلام المنثور المسّجع ونحوه، ورجل خطيب: حسن الخطبة بالضم[1].

وقال الرّاغب الأصفهاني: «الخطب والمخاطبة والتخاطب: المراجعة في الكلام، ومنه: الخطبة والخطبة، لكن الخطبة تختص بالمواعظ، والخطبة بطلب المرأة، وأصل الخطبة: الحالة التي عليها الإنسان إذا خطب نحو الجلسة والقعدة، ويقال من الخطبة: خاطب وخطيب، والخطبة خاطب لا غير، والفعل منهما: خطب.والخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب، قال تعالى ﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الذاريات: ٣١]

وفصل الخطاب ماينفصل به الأمر من الخطاب»[2].

هذا مفهوم الخطابة في اللغة، وأمّا في الاصطلاح فقد عرّفت الخطابة عدّة تعريفات قديما وحديثا، ولا يخلو بعضها من مقال وملاحظات واستدراكات وتعقبات، ليس محلّ بسطها في هذا المقام، فمن أقدم من عرّف فنّ الخطابة أرسطو بقوله: «قوة تتكلف الإقناع الممكن في كلّ واحدة من الأمور المفردة»[3].

ومن المعاصرين الذين تعرّضوا لتعريف الخطابة الأستاذ محمد أبو زهرة، حيث قال مبيّنا ماهيتها: «الخطابة مصدر خطب يخطب أي صار خطيبا، وهي على هذا صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول ؛ لمحاولة التأثير في نفوس السامعين، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم، فالخطابة مرماها التأثير في نفس السامع ومخاطبة وجدانه، وإثارة إحساسه للأمر الذي يراد منه، ليذعن للحكم إذعانا، ويسلم به تسليما».

ومن التعاريف المعاصرة تعريف الأستاذ الدكتور أحمد الحوفي، وقد عدّ حدّه لماهية الخطابة من أجمع التعاريف[4]، حيث جاء في تعريفه قوله: «فنّ مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالته، فلا بدّ من مشافهة، وإلاّ كانت كتابة، أو شعرا مدونا، ولا بدّ من جمهور يستمع، وإلاّ كان الكلام حديثا أو وصية، ولا بدّ من الإقناع، وذلك

---

[1] - القاموس المحيط:مجد الدين أبو طاهر الفيروز آبادي، ج 1، ص 81.

[2] -المفردات في غريب القرآن : ج 1، ص 286، مادة - خطب -.

[3] - الخطابة: أرسطو طاليس، الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق: عبد الرحمان بدوي، ص 09.

[4] - ينظر: فنّ الخطابة ومهارات الخطيب .بحوث في إعداد الخطيب الداعية ،. إسماعيل علي محمد، ص 14.

بأنّ يوضح الخطيب رأيه للسامعين، ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده، ثمّ لابدّ من الاستمالة، والمراد بها أن يهيّج الخطيب نفوس سامعيه، أو يهدئها، ويقبض على زمام عواطفها، كيف شاء سارا أو محزنا، مضحكا أو مبكيا، داعيا إلى الثورة أو إلى السكينة، وإذا فأسس الخطابة: مشافهة، وجمهور، وإقناع، واستمالة» [1].

المسألة الثانية: أهمية الخطابة ومكانتهافي الدعوة إلى سبيل الله

إنّ الله جلّ وعلا أمر بالدعوة إلى سبيله بالحكمة، والموعظة الحسنة، ومجادلة أهل الباطل ومقارعتهم بالحسنى، ومن الدعوة إلى الله نشر رسالة الإسلام وتعاليمه، وتبليغ ما أمر الله ببيانه وإيضاحه، وقد نهض بهذه المهمة النبيلة أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم أجمعين على أكمل وجه وأتمه، قال جلّ وعلا :﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥ ﴾

[النساء: ١٦٥]، وقال في شأن نبيّه صلى الله عليه وسلم ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧]

هذا وإنّ الدعوة إلى الله تعالى لها وسائل عدّة، وطرق شتّى، وفنون متنوعة، كان من أ نجعها وأنفعها، فنّ الخطابة الذي اتخذّه النبي عليه الصلاة والسلام سلاحا في الدعوة والتبليغ، واستخدمها في الصدع بما أمره الله أن يصدع به، عند قوله له :﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]

وقوله له: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، حيث أخرج الإمام الترمذي في سننه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:«لمّا نزلت هذه الآية: وأنذر عشيرتك الأقربين، جمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قريشا فجمع وخصّ ؛ فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم من الله ضرّا ولا نفعا. يا معشر عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم من الله ضرّا ولا نفعا، يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإنّي لا أملك لكم من الله ضرّا ولا نفعا، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، فإنّي لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإنّي لا أملك لك ضرا ولا نفعا، إنّ لك رحما وسأبلها ببلالها»[2].

هذا وفي السنة النبوية نماذج كثيرة على اتخاذه الخطابة وسيلة في الدعوة إلى الله تعالى، كما هو الشأن عند استقبال الوفود من قبائل العرب الداخلة في الإسلام، والشأن عينه في إرساله وتوجيه قادة الجيوش لنشر

[1] -فنّ الخطابة: أحمد الحوفي، ص 05.

[2] -سنن الترمذي: أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الشعراء، ج5، ص 192، رقم 3185.

الإسلام، واتخاذه خطيبا يخطب بحضرته عند أمره إيّاه، كما ثبت في السنن أنّه اتخذ ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري خطيبا له، وأمره أن يردّ على خطيب وفد بني تميم قائلا له: «قم فأجب الرجل في خطبته»[1].

هذا وممّا يؤكد مكانة الخطابة في نشر رسالة الإسلام وتبليغة، وأنّها أنجع الوسائل في الدعوة إلى الله، هو اختصاص كثير من الشعائر والعبادات بالخطب، فلا تنعقد بدونها كصلاة الجمعة التي شرعت فيها الخطبة، وكذلك شعيرة صلاة العيدين، وخطبة أهل الموقف في عرفات، وخطبة صلاة الاستسقاء، فهذه الشعائر جميعها قرنت بها الخطب لما لها من تأثير كبير في استمالة المخاطبين وجذب نفوسهم للاستماع، ولما لها من قوة في الإقناع، وإظهار الحق، وإبطال الباطل، وغيرها من المنافع الجمّة التي لا تحصّل إلاّ بالخطابة، والخلاصة أنّ الخطابة في الإسلام على حدّ تعبير الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله -: «...مظهر من مظاهر الحياة المتحركة فيه، الحياة التي تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ويثب من فكر إلى فكر، وينتقل مع الزمان من جيل إلى جيل، ومع المكان من قطر إلى قطر» [2].

المثال الأول: التحليل البلاغي لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

أخرج الإمام مسلم في صحيحه في صفة حج النبي - صلى الله عليه وسلم - في حديث جابر الطويل: قال: «حدّثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وإسحاق بن إبراهيم جميعا عن حاتم، قال أبو بكر حدّثنا حاتم بن إسماعيل المدني، عن جعفر بن محمد عن أبيه، قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم حتّى انتهى إليّ، فقلت: أنا محمد بن علي بن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زرّي الأسفل، ثمّ وضع كفّه بين ثديي وأنا يومئذ شاب، فقال: مرحبا بك، يا بن أخي، سل عمّا شئت، فسألته وهو أعمى، وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجة ملتحفا بها، كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها، ورداؤه إلى جنبه، على المشجب، فصلى بنا، فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فذكر له جابر صفة حجه - صلى الله عليه وسلم -، وأورد فيهاخطبة بأهل الموقف في عرفة -، فقال:... فأجاز رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حتّى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتّى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس وقال: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإنّ أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنّه موضوع كلّه، فاتقوا الله في النساء، فإنّكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضربا غير مبرّح، ولهنّ عليكم رزقهن وكسوتهنّ

[1] -ينظر: تاريخ المدينة، ابن شبة، باب الوفود، ج 2، ص 524.

[2] -ينظر: مع الله: محمد الغزالي، ص 307.

بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، أنتم تسألون عني ؟، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس «اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات» [1].

ثانيا: مباحث البلاغة في الخطبة الشريفة

لقدانطوت هذه الخطبة المنيفة على كليات الشريعة وأصول التعاليم الإسلامية، بل حوت الثوابت المتفق عليها بين الشرائع في الحرمة والمنع، ذلك أنّها جاءت ترسخ كثيرا من قواعد التشريع، وقوانين المعاملات بين الخلق فيما بينهم وبين الله تعالى، حيث نصّت على حرمة الدماء والأموال والأعراض، وتقرير حقوق النساء على الرجال، والتي استهان بها المجتمع الجاهلي واستباحها، فأردا النبي - صلى الله عليه وسلم -في ذلك الموقف العظيم من يوم التاسع من ذي الحجة يوم عرفة في السنة العاشرة للهجرة إحاطة تلك الحقوق بسياج يمنع استباحتها وهتك سترها، فجعل حرمتها معادلة حرمة البلد الحرام، وشهر ذي الحجة المحرم، ويوم عرفة، تأكيد وتنصيصا على حرمتها، وقد وظّف - صلى الله عليه وسلم - في هذه الخطبة أرقى أساليب البيان وأعلاها، ولا غرّو في ذلك، فكلامه أفصح كلام البشر قاطبة، تجلّت أفانين البيان وروائعه في سلاسة الأسلوب، ونقاء اللفظ واستيفائه للمعنى، وعذوبة المنطق، وسأنّبه في هذا المقام على أهمّ ما تضمنته الخطبة من مباحث البلاغة.

أوّل ما حوته هذه الخطبة من درر علم المعاني، هو ورود أسلوب التوكيد في ثنايها، وقد تنوعت أدوات التوكيد في هذه الخطبة حسب السياق والغرض، فمن أدوات التوكيد الموظفة في الخطبة: «إنّ»، والتكرار، وأداتا التوكيد قد، وكل، فممّا جاء مؤكدا بإنّ قوله - صلى الله عليه وسلم -: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم»، والغرض من إيراد أدوات التوكيد في ثنايا الكلام عند البلاغيين هو حسم الشّك والتردد الذي قد يختلج ويعتري المستمع، فقطعا لدار الشك يؤكد الكلام، وفي تقرير ذلك يقول الخطيب القزويني - رحمه الله -: «... وإن كان متصور الطرفين مترددا في إسناد أحدهما للآخر طالبا له حسن تقويته بمؤكد»[2].

هذا وقد تكرّر التوكيد بأداة إنّ في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «وإنّ أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث»، وقوله أيضا: « وأوّل ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنّه موضوع كلّه».

والغرض من إيراد هذه الأداة في هذه المقاطع خصيصا هو توثيق وتثبيت حرمة الدماء والأموال والأعراض، وبيان أهمية التخلص من موروثات الجاهلية فيما تعلق بهذه القضايا الكبرى، لتستعدّ النفوس التي خالط الإيمان

[1] - صحيح مسلم: كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، ج 2، ص 886، رقم 1218.

[2] - الإيضاح في علوم البلاغة: ص 18.

قلوبها استئصالها واجتثاثها فلا يعلق بها شيء من أدران الجاهلية. وقد أشار إلى هذا القصد من توظيف أداة التوكيد في هذا المقطع الدكتور جليل رشيد فالح بقوله: «إنّ حرمة الأموال والدماء ولقاء الله ووضع الربا والدماء، ممّا تعدّ من كبريات القضايا التي تسود حياة العرب، وكان لا بدّ لها من الحسم القاطع، تنقية للمجتمع الإسلامي من كلّ بقايا الجاهلية ومواريثها، ولذلك تصدّرت هذه المقاطع أداة التوكيد «إنّ» التي تضمن الإيصال والتثبيت إضافة إلى حسم التردد والشك في القبول والتلقي... ونحن نقول إنّ أداة التوكيد سواء كانت واحدة أم أكثر، فإنّها تقيّد توثيق الأمر وضمان حسن تلقيه وأثره في نفس المتلقي، واتخاذ موقف معين مضامينه، سواء كان شك في الأمر أم لم يكن، وإلى جانب ذلك إشعار بأهمية الأحكام المعروضة ضمانا لحشد الطاقات النفسية والاجتماعية لاجتثاث ما علق بالنفوس والواقع المعيش من آثار وقيم نسخها الدين الإسلامي ...» [1].

من المؤكدات الموظفة في الخطبة الشريفة أسلوب التكرار، والتكرار عند البلاغيين تكرار كلمة، أو لفظ أكثر من مرّة في سياق واحد، لنكتة ما، وذلك إمّا للتوكيد، أو لزيادة التنبيه والتهويل والتعظيم [2] وأشار الإمام الزمخشري - رحمه الله - إلى القيمة الفنية والجمالية لأسلوب التكرار بقوله: «... استدعاء مهم لتجديدالاستبصار عند كل خطاب وارد، وطريقة الإنصات لكلّ حكم نازل، وتحريك منهم لئلاّ يفتروا أو يغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به»

هذا وتجلّى توظيف خاصية التكرار في الخطبة عند قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا»، ففي تكرار وإعادة اسم الإشارة «هذا»في هذه العبارة وعند نهاية كل مقطع زيادة في توكيد حرمة الدماء والأموال والأعراض حتّى تتحفزّ النفوس وتتأهب للتخلص من هذه المحرمات، يقول الدكتور جليل رشيد فالح: «ولا يغب عن البال ما أضافه تكرار «هذا» في نهاية كل مقطع من إيقاع لفظي زاد من جلال التوكيد جلالا، وكان له من الواقع ما يحفّز النفوس إلى التثبيت والتملي واستبعاد القضية بكل أبعادها النفسية والفكرية...» [3].

وثاني ما حوته الخطبة المنيفة من فنون علم المعاني توظيف أسلوب الاستفهام لأغراض مجازية، فقد جاء الاستفهام في الخطبة معدولا به عن أصل حقيقته التي هي طلب الفهم، بل جاوز ذلك إلى غرض آخر لا ينتظر معه جواب، وقد تجسّد ذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «أنتم تسألون عنّي ؟ فما أنتم قائلون ؟» فإيراد لهذا السؤال لم يكن القصد منه انتظار جواب من الحضور المخاطبين، لكن جيئ به في هذا السياق ليقرّر ويثبت حقيقة مستيقنة في نفوس المخاطبين من أنّه - صلى الله عليه وسلم - قد أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة ببلاغ لم يدع

---

[1] -خطبة الوداع دراسة بلاغية تحليلية: جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرافدين، العدد: 13، ص 407 -424.

[2] - ينظر: أنواع الربيع في أنوار البديع، ابن معصوم، ج 5، ص 34 -35.

[3] - خطبة الوداع دراسة بلاغية تحليلية: جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرافدين، العدد: 13، ص 407 -424.

فيه لأحد من الخلق حجة عليه، وقد أتى الجواب من قبل المخاطبين عقب هذا الاستفهام بالإقرار في عبارة «نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت».

هذا فيما تعلّق ببعض فنون علم المعاني التي شملتها هذه الخطبة، وأمّا ما يخصّ علم البيان فقد جاء في ثناياها بعض الصور البيانية والتي سيقت لتجسيد تلك المعاني والقضايا الكبرى التي عالجتها الخطبة في قالب المحسوس المرئي الذي تزداد النفس به يقينا وقناعة لما يلقى على مسامعها من تعاليم وفرائض، فمن ذلك ورود التشبيه في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا» فقد شبّه حرمة الدماء والأموال والأعراض بتحريم يوم عرفة، وتحريم شهر ذي الحجة، وتحريم البلد الحرام، والسبب في تشبيه ذاك بذلك، هو ما كانت تعتقده العرب في شدّة حرمة البلد الحرام وشهر ذي الحجة ويوم عرفة، فلا يستبيحون فيها شيئا كان محرما عليهم، ففي ضمن هذا التشبيه تأكيد لحرمة الدماء والأموال، قال الإمام الطيبي - رحمه الله -: « أقول هذا من تشبيه ما لم تجر به العادة بما جرت به العادة، كما في قوله تعالى: «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلة»[سورةالأعراف : 171] كانوا يستبيحون دماءهم وأموالهم في الجاهلية في غير الأشهر الحرم، ويحرمونها فيها، كأنّه قيل: إنّ دماءكم وأموالكم محرمة عليكم أبدا كحرمة يومكم وشهركم وبلدكم»[1].

وقال الإمام الكرماني - رحمه الله -: «وإنّما شبّهها في الحرمة باليوم والشهر وبالبلد أيضا في بعض الروايات، لأنّهم لا يرون استباحة تلك الأشياء للحرمة ولتقريرها في أنفسهم ليبني عليه ما أراد تقريره على سبيل تأكيد الحرمة وتشديدها»[2].

المثال الثاني: التحليل البلاغي لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم في معشر الأنصار بعد غزوة حنين

أولا : نصّ الخطبة

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدّثنا يعقوب، حدّثنا أبي، عن إسحاق قال: وحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال:«لمّا أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطى من تلك العطايا في قريش وقبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتّى كثرت فيهم القالة حتّى قال قائلهم: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله إنّ هذا الحيّ قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي قد أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاما في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار شيء، قال: «فأين أنت من ذلك يا

[1] - الكاشف عن حقائق السنن: شرح مشكاة المصابيح، الطيبي، ج1، ص 1964.

[2] -الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: الكرماني ج 2، ص 29.

سعد» ؟ قال: يا رسول الله ما أنا إلاّ امرؤ من قومي، وما أنا، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون، فردّهم، فلمّا اجتمعوا أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، قال: فأتهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فحمد الله وأثنى عليه، بالذي هو أهل له، ثمّ قال: يا معشر الأنصار ماقالة بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألّف الله بين قلوبكم ؟ قالوا: بل الله و رسوله أمنّ وأفضل. قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار» قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المنّ والفضل، قال: «أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم، أتيتنا مكذبا فصدّقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قوما ليسلموا، ووكلتم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم، فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا، وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، «قال: فبكى القوم حتّى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسْما وحظا، ثمّ انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرّقوا»[1].

ثانيا: مباحث البلاغة في الخطبة الشريفة

لقد اشتملت هذه الخطبة المنيفة من أفانين البلاغة دررا، وأوّل ما حوته هذه الخطبة من درر علم المعاني في باب الإنشاء الطلبي الذي يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب، هو استفتاحه - صلى الله عليه وسلم - للخطبة بعدالحمد والثناء بأسلوب النداء، وذلك في قوله: «يا معشر الأنصار» ومعلوم أنّ الأنصار كانوا متواجدين بحضرته، لكنه آثر استعمال أسلوب النداء بحرف الياء المخصص للمنادى البعيد قصد لفت انتباههم وشدّ أذهانهم لما سيلقيه على مسامعهم من كلام دقيق في هذا المقام، وجب عليهم الإصغاء له بالقلب والجوارح، ففي طيات النداء وجنباته تحفيز للأنصار للاهتمام بما يعرض عليهم من الكلام، وفي ضمن هذا النداء تشريف للأنصار وبيان منزلتهم ومكانتهم، ولذا أكثر المولى جلّ وعلا في كتابه ومحكم تنزيله من نداء أهل الإيمان بقوله: «يأيّها الذين آمنوا»، ولقد تكرّر النداء في هذه الخطبة خمس مرات عبر ثنايها وفصولها لكلّ منها غرض حسب السياق، وجاء النداء الثاني في سياق السؤال عند قوله: «أفلا تجيبوني يا معشر الأنصار» وكرّره في المرّة الثالثة عند قوله: «أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا...» وفي الرابعة جاء النداء من قبل الأنصار في مقام الإجابة. وذلك عند قولهم: «قالوا وبماذا نجيبك يا رسول الله» وفي الخامسة كرّر النداء بحذف الأداة، لأنّ ذلك في سياق الدّعاء للأنصار وجبر قلوبهم ممّا فاتهم من أمر الغنائم. وذلك في قوله: «اللهم ارحم الأنصار».

[1] -مسند أحمد بن حنبل، مسند أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -، ج 18، ص 253 -255،رقم: 11730.

هذا فيما تعلّق بمباحث البيان التي حوتها الخطبة، وأمّا أساليب البديع ومحسناته فقد كان لها حظ ونصيب من هذه الخطبة المنيفة، حيث وظفت في تحسين الكلام وتزيينه، فمن المحسنات المعنوية الموظفة في الخطبة فنّ المقابلة، وهي عند البلاغيين: إتيان المتكلم بلفظين متوافقين، فأكثر، ثمّ بأضدادها أو غيرهما على الترتيب [1].

وقد انقسمت المقابلات الواردة في الخطبة إلى قسمين:

قسم جاء في وصف حال الأنصار قبل قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - إليهم، وتجلّى ذلك في:

«ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بي»

«وعالة فأغناكم الله بي»

«وأعداء فألّف الله بين قلوبكم»

فقابل في هذه الجمل الثلاث بين الضلال والهدى، والفقر والغنى، والعداوة والألفة، وهذه الأحوال جميعها كانت في الأنصار قبل مجيئ النبي عليه الصلاة والسلام إليهم، صيغت هذه المقابلات في سياق الاستفهام المقصود به التقرير وإثبات الحجة.

والقسم الثاني من المقابلات كان زمن قدوم النبي - صلى الله عليه وسلم - عليهم، وتجسّد ذلك في:

أتيتنا مكذبا فصدقناك

ومخذولا فنصرناك

وطريدا فآويناك

وعائلا فآسيناك

ففي هذه العبارات قابل النبي عليه الصلاة والسلام بين الصدق و الكذب، والخذلان والنصر، والطرد والإيواء، والفقر والغنى، وجاءت هذه المقابلات في أسلوب خبري قصد تأكيد حفظ النبي صلى الله عليه وسلم لفضلهم وعدم نسيانه، ونسيان شريف صنيعهم في نصرته[2].

وخاتمة المقابلات كانت في قوله عليه الصلاة و السلام: «أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله في رحالكم» فقابل صلوات ربي وسلامه عليه بين الذهاب والرجوع وذيّل بهذه المقابلة زيادة في الإقناع بضرب المثل في التخيير بين حطام الدنيا ونعيم الآخرة المجسّد في البعير والشاة، وفي ذاته الشريفة عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فلا ريب أنّ العاقل الذي خالط الإيمان شغاف قلبه وتملكه سيختار الرجوع بالنبي إلى ديارهم.

---

[1] -ينظر: فنّ البديع، عبد القادر حسين، ص 49.

[2] - ينظر: آليات الحجاج البلاغي في خطبة غزوة حنين: زكية بنت محمد بن مبارك السليس العتيبي، ص 577.

ومن المحسنات اللفظية التي تزينت وتجمّلت بها هذه الخطبة، محسّن الجناس الذي يعني عند البلاغيين: تشابه الكلمتين في اللفظ، واختلافهما في المعنى. وقد وقع هذا في الخطبة عند قوله عليه الصلاة والسلام: «فلصدقتم ولصدّقتم»، وهو من الجناس التام، والغرض منه حمل المستمع على الإصغاء إلى الكلام، لأنّ مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها.

ومن المحسنات اللفظية الواردة في الخطبة السجع، الذي يعني عند البلاغيين :اتفاق الفواصل في الحرف، أو في الوزن، أو فيهما معا[1]. وقد ورد في الخطبة في ثلاثة مقاطع، الأوّل عند قوله - صلى الله عليه وسلم -: «ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله»، والثاني: عند قوله عليه الصلاة والسلام «أتيتنا مكذّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك»، والثالث في قوله: «اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

والسجع في المقطعين الأول والثاني من السجع المتوازي الذي تتفق فيه الكلمات في الحرف والوزن معا، وفي المقطع الأخير يسمى المتوازن، لأنّ الاتفاق حصل في الوزن دون الحرف، وغرض إيراد السجع وإيقاعه في الخطبة التأثير على السامع، وجذب انتباه للكلام بصياغته في إيقاع ووزن صوتي متناسب،يسهل به استمالة المخاطبين وإقناعهم.

[1] - ينظر: ينظر: فنّ البديع، عبد القادر حسين، ص 127.

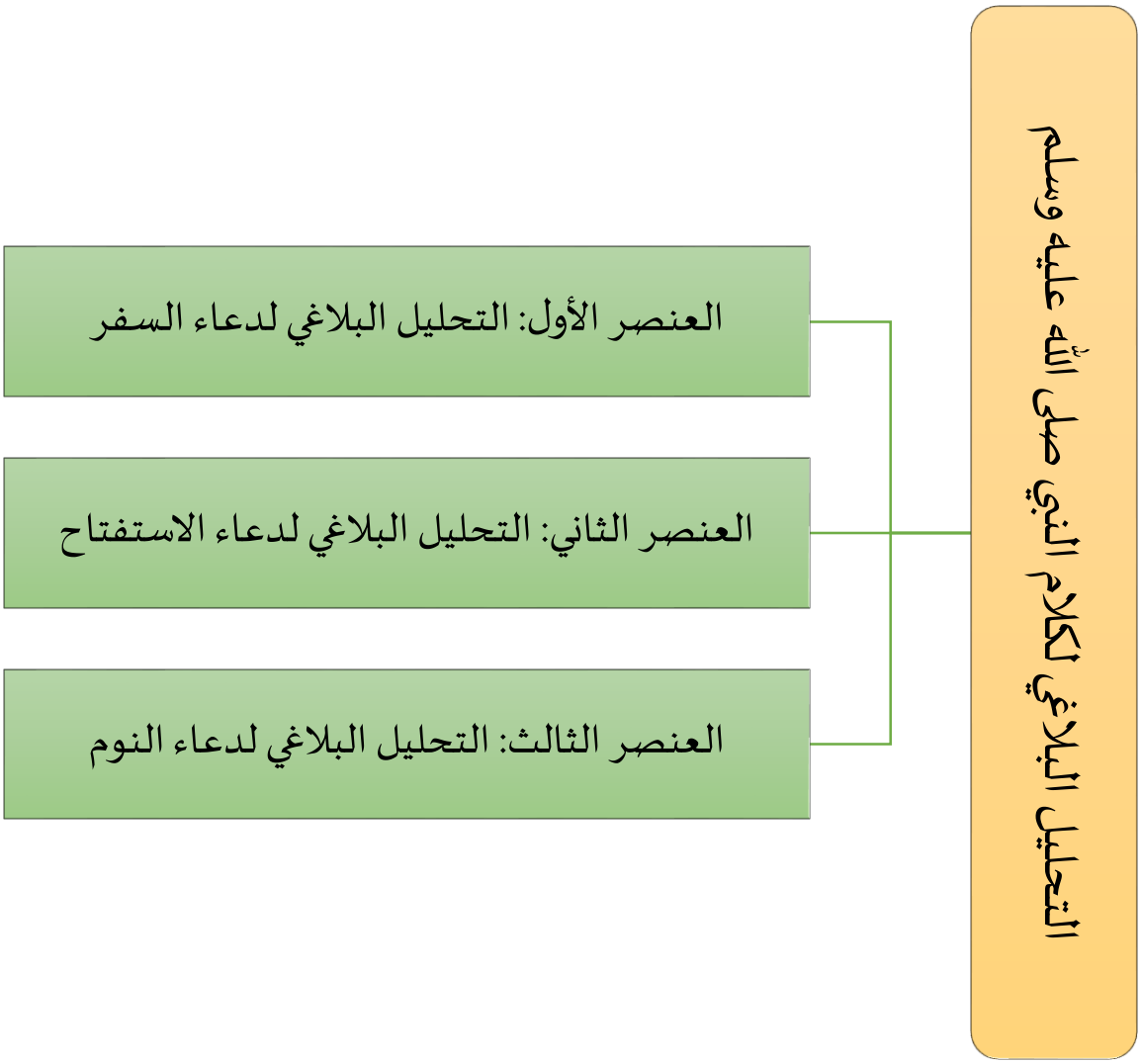
التحليل البلاغي لكلام النبي صلى الله عليه وسلم
العنصر الأول: التحليل البلاغي لدعاء السفر
العنصر الثاني: التحليل البلاغي لدعاء الاستفتاح
العنصر الثالث: التحليل البلاغي لدعاء النوم

المحاضرة 7

بعد أن أوردنا في المحاضرة السابقة بعضا من الصور البيانية والمباحث البلاغية التي تضمنها واشتمل عليها حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -، نعرّج في هذه المحاضرة لتسليط الضوء على بعض الأدعية النبوية التي هي من جوامع الكلم التي أوتيه - صلى الله عليه وسلم -، لنقف على ما فيها من جمال بياني، وتعبير بلاغي، له أثره البيّن في تأكيد المعاني وتوضيحها، وتقريب الأفكار في صورة مجسّدة بادية للأعيان، مع تقريرها وتشخيصها. وذلك بانتقاء بعض من الأدعية المأثور عنه عليه الصلاة والسلام.

الدّعاء الأول: دعاء السفر

أولا: نص الدعاء:

قال الإمام مسلم في صحيحه: «حدّثني هارون بن عبد الله، حدّثنا حجاج بن محمد، قال قال: ابن جريج: أحبرني أبو الزبير، أنّ عليا الأزدي أخبره، أنّ ابن عمر علّمهم ؛ أنّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبّر ثلاثا، ثمّ قال: «سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلى ربّنا منقلبون، اللهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا، وطو عنّا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»، وإذا رجع قالهن، وزاد فيهنّ: «آيّبون تائبون عابدون لربّنا حامدون»[1].

ثانيا: بيان الغريب

- { أعوذ بك من وعثاء السفر}: معناه شدّته ومشقته. وأصله من الوعث وهو الدّهش، وهو الرمل الرقيق. والمشي فيه يشتدّ على صاحبه، فجعله مثلا لكلّ ما يشق على صاحبه [2].

- {وكآبة المنظر}: الكآبة تغير النفس بالانكسار من شدّة الوهم والحزن، وقيل: المراد منه الاستعاذة من كل منظر تعقبه الكآبة[3].

---

[1] - صحيح مسلم: كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج، ج 2، ص 978، رقم:1342، وأخرجه الإمام الترمذي في سننه، باب ما يقول إذا ركب دابة، ج 5، ص 379، رقم: 3447.، والإمام أبوداود في سننه، باب ما يقول: الرجل إذا سافر، ج 3، ص 33، رقم: 2599.

[2] - ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، القاضي عياض، ج 4، ص 452.

[3] - ينظر: شرح المشكاة للطيبي، ج 6، ص 1893.

- {وسوء المنقلب}: أي ينقلب إلى وطنه فيلقى ما يكتئب منه من أمر أصابه في سفره، أو ما تقدّم عليه، مثل أن يعود غير مقضي الحاجة، أو أصابت ماله آفة، أو يقدم على أهله فيجدهم مرضى، أو فقد بعضهم [1].

ثالثا: الجوانب البلاغية في الحديث

في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «وطو عنّا بعده» استعارة مكنية حيث شبّه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم طول السفر وبعده، وما يسفر عنه من العنت والمشقة بفراش يبسط ليمتد، ثمّ يطوى، فقد ذكر عليه الصلاة والسلام في هذه العبارة المشبه وهو السفر، وحذف المشبه به وهو الفراش على سبيل الاستعارة المكنية وأتى بشيء من لوازمه وهو الطي.

الدعاء الثاني: دعاء الاستفتاح في الصلاة

أولا: نص الدعاء:

قال الإمام البخاري في صحيحه: «حدّثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدّثنا عبد الواحد بن زياد، قال: حدّثنا عمارة بن القعقاع، قال: حدّثنا أبو زرعة، قال: حدّثنا أبو هريرة قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة - قال أحسبه قال: هنيّة - فقلت له: بأبي وأمي يارسول الله، أرأيت إسكاتك بين التكبير والقراءة، ما تقول ؟ قال: أقول: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب. اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدّنس. اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد» [2].

ثانيا: بيان الغريب

{إسكاتة}: بكسر الهمزة على وزن إفعالة، قال بعضهم: إسكاتة من السكوت. قلت: بل من أسكت، والسكوت من سكت، وهذا الوزن للنوع والمرة من الثلاثي فيه، ومن المجرّد يجئ على سكتة بالفتح للمرة، وبالكسر للنوع، وقال الخطابي: معناه سكوتا يقتضي بعده كلاما، أو قراءةمع قصر المدة، وأريد بهذا النوع من السكوت ترك رفع الصوت بالكلام ألا تراه يقول: ما تقول في إسكاتك ؟ [3].

{هنية}: بضم الهاء وفتح النون وتشديد المثناة التحتية من غير همز - كذا عند الأكثر - أي يسيرا [4].

{باعد}: بمعنى: أبعد، قال الكرماني: أخرجته إلى صيغة المفاعلة للمبالغة.

{خطاياي}: جمع خطية كالعطايا جمع عطية، يقال: خطأ في دينه إذا أثم فيه، والخطأ بالكسر الذنب والإثم.

{نقني}: بتشديد القاف. وهو أمر من نقّى ينقي تنقية.

---

[1] -ينظر: الفائق في غريب الحديث: ج 4، ص 71.

[2] -صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب ما يقول بعد التكبير، ج 1، ص 149، رقم 744.، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه: كتاب الصلاة، باب ما يقال بين تكبيرة الإحرام، ج 1، ص 419، رقم 598.

[3] -ينظر: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، ج 5، ص 292.

[4] - ينظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، القسطلاني،ج 2، ص 77.

{الدنس}: بفتح النون الوسخ [1].

ثالثا: الجوانب البلاغية في الحديث

قوله: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»

في هذه العبارة سؤال ودعاء من النبي - صلى الله عليه وسلم - لربّه أن يباعد بينه وبين خطاياه، وذلك مفسر بمحوها أو عدم المؤاخذة عليها، أو أن يحول بينه وبين الوقوع فيها، فيكون بمعنى عصمتها من ولوجها وولوغها، وقد شبّه مباعدته بينه وبين بالمباعدة التي ما بين المشرق والمغرب على سبيل المبالغة، إذ لا معهود في الأذهان في البعد المكاني مثل مابين جهة المشرق وجهة المغرب، قال الإمام بدر الدين العيني - رحمه الله- مبيّنا وجه الشبه: «كلمة ما مصدرية، تقديره: كتبعديك بين المشرق والمغرب، ووجه الشبه أنّ التقاء المشرق والمغرب لما كان مستحيلا، شبّه أن يكون اقترابه من الذنب كاقتراب المشرق والمغرب»[2]، فالغرض من هذا التشبيه المبالغة في امتناع الاقتراب من الذنوب، مثل امتناع قرب جهتي المشرق والمغرب.

وفي قوله: «بين المشرق والمغرب» محسن بديعي. وهو الطباق فقد جمع بين المشرق والمغرب. وهذا النوع من الطباق يعرف عند البيانيين بطباق الإيجاب

قوله: «اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدّنس» في هذه العبارة سؤال ودعاء من النبي - صلى الله عليه وسلم - لربّه أن يطهره من الذنوب ومن الخطايا تطهيرا وتنقية لا يبقى معها أثر لتلك الذنوب والخطايا، فشبّه هذه التنقية والتطهير بتنقية الثوب الأبيض من الدنس والوسخ، وإنّما وقع التشبيه بالثوب الذي لونه البياض دون بقية الألوان، لأنّ أثر الدّنس والوسخ أظهر في الأبيض من غيره من الألوان، وزوال الدّنس منه أظهر وأبين من بقية الألوان، فلذلك وقع التشبيه، وفي هذا يقول الإمام ابن دقيق العيد -رحمه الله -: «وقوله: «اللهم نقني من خطاياي - إلى قوله -: من الدنس» مجاز - كما تقدّم - عن زوال الذنوب وأثرها. ولمّا كان ذلك أظهر في الثوب الأبيض من غيره من الألوان وقع التشبيه به» [3].

الدعاء الثالث:

أولا: نص الدعاء:

---

[1] -ينظر: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، ج 5، ص 292.

[2] - نظر: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، ج 5، ص 294.

[3] - إحكام الإحكام في شرح عمدة الأحكام: ص 230.

قال الإمام مسلم في صحيحه: «حدّثنا عبيد الله بن معاذ، حدّثنا أبي، حدّثنا شعبة، عن عبد الله بن أبي السفر، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن البراء، أنّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم - كان إذا أخذ مضجعه قال: «اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت» وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور» [1].

ثانيا: بيان الغريب

قوله: {باسمك أحيا، وباسمك أموت} معناه يحتمل أنّه يريد بذكر اسمك أحيا ما حييت، وعليه أموت ويحتمل أن يريد: بك أحيا،أنت تحييني، وأنت تميتني. والاسم المسمى [2].

ثالثا: الجوانب البلاغية في الحديث

في قوله: «باسمك أحيا، وباسمك أموت» حوت هذه العبارة مبحثا مهما من مباحث علم المعاني. والذي له صورة جمالية وموقع حسن في المنظوم والمنثور من الكلام. وهذا المبحث هو التقديم والتأخير الذي ينطوي على أسرار بلاغية، ونكت بيانية بديعة الغاية، فقد يعكس ترتيب بعض أجزاء الجملة فيقدم بعضها على بعض. وهذا التقديم والتأخير يأتي لفوائد و أغراض. وقد نوّه أئمة البيان بهذا الأسلوب الذي حفل به القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن أحسن وأبلغ ما قيل في بلاغة الأسلوب ما ذكره إمام الصناعة وشيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني - رحمه الله - فقال معدّدا أغراضه البلاغية: «هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية... ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثمّ تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدّم فيه شيء، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان» [3].

والتقديم الموجود في العبارة الآنفة الذكر - «باسمك أحيا، وباسمك أموت» هو تقديم المتعلق الجار والمجرور باسمك على الفعل أحيا، والفعل أموت في العبارة الأخرى، وهذا التقديم أفاد معاني الحصر والتقييد والقصر والتخصيص، فالله سبحانه وتعالى هو الذي بيده الإحياء والإماتة، وليس لأحد في الكون آدميا كان أو حيوانا أن يموت إلاّ بإذن الله وإرادته.

---

[1] - صحيح مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ج 4، ص 2083، رقم 2711.

[2] - ينظر: إكمال معلم بفوائد مسلم: ج 8، ص 210.

[3] - دلائل الإعجاز، ص 106.

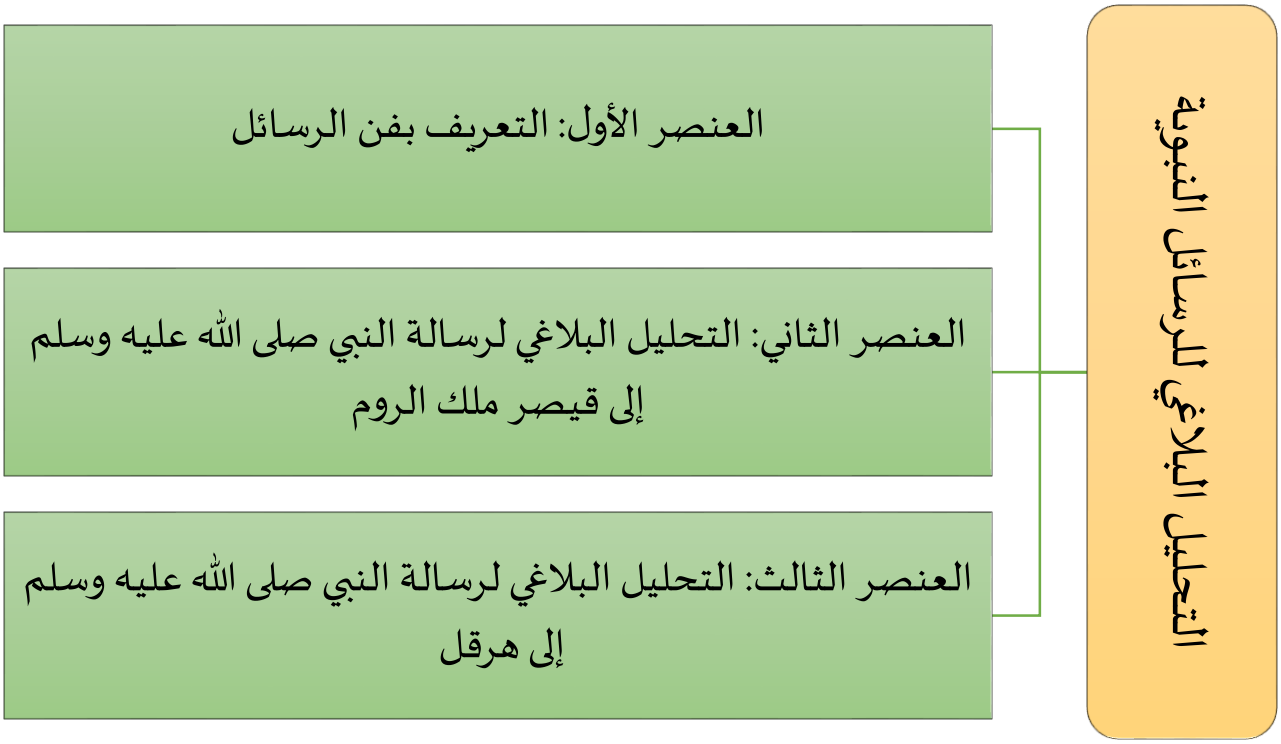
التحليل البلاغي للرسائل النبوية
العنصر الأول: التعريف بفن الرسائل
العنصر الثاني: التحليل البلاغي لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ملك الروم
العنصر الثالث: التحليل البلاغي لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل

المحاضرة 7

إنّ فنّ الرسائل من الفنون القديمة التي عرفها العرب، فقد كانوا يولونها عناية بالغة واهتماما فائقا، ذلك لأنّ مدار التواصل بينهم في تلك الحقبة كان معتمده عليها، بيد أنّ مكانته بين الفنون الأدبية الأخرى كالشعر والخطابة لم يكن بمنزلتهما، وبمجيئ الإسلام أخذ هذا اللون الأدبي في الازدهار والتطور شيئا فشيئا، حتّى بلغ ذروته في القرنين الثالث والرابع، وصار لفنّ الرسائل ديوان خاص من دواوين الدولة الإسلامية، يعنى فيه بشؤون المكاتبات والمراسلات بين الخليفة والولاة والأمراء، واتخذ وانتدب لهذه المهمة كتاب من أدباء ذلك العصر، صار يطلق عليهم كاتب الدولة.

هذا وإنّ الرّاصد لتاريخ هذا الفنّ من فنون الأدب في جميع مراحله، يتأكدّ له بجلاء فضله - صلى الله عليه وسلم - وتقدّمه بالسبق في إرساء دعائم هذا اللون من ألوان الأداب، وذلك بحرصه صلوات ربي وسلامه عليه على تعليم الصحابة القراءة والكتابة، وحثهم على تعلم ذلك، واتخاذه لكتاب خاصين به، أوكل إليهم مهمة تدوين وكتابة القرآن الكريم، كما أوكل إلى بعضهم كتابة الرسائل التي أرسلها إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى دين الإسلام، ولقد كانت رسائله عليه الصلاة والسلام للملوك والأمراء قطعة فريدة من صفحات هذا الفنّ النثري من فنون الأدب العربي، نظرا لما حوته من أفانين البلاغة ودرر البيان، فكانت تلك الرسائل رياضا يانعة عامرة بنفائس الفصاحة والبلاغة، ولقد كانت هذه الرسائل حقيقة وحرّية بالبحث والدراسة من الجانب البياني، اعتبارا لما شملته وحوته من أسرار بلاغية، فكان لزاما أن يوقف عندها بالتحليل والبيان قصد تجلية تلك الأسرار والجماليات وإيضاحها، فلذا ارتأيت نجع نجعة رسائل ثلاث من رسائله -ـ صلى الله عليه وسلم -ـ لها أصالتها ووثاقتها في كتب السنة والسير والتاريخ، وهي: رسالته عليه الصلاة والسلام إلى هرقل عظيم الروم، ورسالته إلى النّجاشي ملك الحبشة، ورسالته إلى كسرى عظيم الفرس.

المسألة الأولى: التعريف بفنّ الرسائل

تطلق الرسالة في اللغة:على الرسول، قال الإمام ابن منظور - رحمه الله -: «... وسميّ الرسول رسولا، لأنّه ذو رسول، أي ذو رسالة. والرسول: اسم من أرسلت وكذلك الرسالة، وأرسلت فلانا في رسالة، فهو مرسل ورسول» [1].

[1] - لسان العرب: ج 11، ص 214، فصل الراء - مادة رسل -.

هذا في جانب اللغة، وأمّا الرسالة في الاصطلاح، فقد عرّفت بعدّة تعريفات في اصطلاحات بعض اللغويين المعاصرين، وممّا ورد في ذلك تعريف صاحب معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب الذي حدّها بقوله: «هي المعاني التي تنقل إلى العقل المدرك من خلال رموز لغوية، أو وسائل توصيلية أخرى» [1].

وعرّفها الدكتور جابر قميحة بأنّها: «المكتوب الذي يتعلق في مضمونه بأكثر من طرف» [2]، كما ذكر بأنّها تطلق في الاستعمال ويراد بها الكتاب، بيد أنّها تفارقه في كون الكتاب لا يكون إلاّ مكتوبا، وأمّا هي فقد تكون مكتوبة، وقد تكون شفاهة [3].

هذا فيما تعلّق بمفهوم الرسالة عموما، وأمّا الرسائل النبوية التي هي محلّ البحث والدراسة، فيراد بها: «الرسائل النبوية التي بعث بها النبي - صلى الله عليه وسلم -في زمن دعوته إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الدخول في الإسلام واعتناقه، والتي هي من مهمات ما أمر بتبليغه، وأولويات دعوته» .

هذا وقبل الولوج في تحليل مضمون هذه الرسائل، أحببت التنبيه والإشارة على تاريخ إرسالها وبيان الصحابة المكلفين بتبليغها.

أمّا عن تاريخ إرساله عليه الصلاة والسلام، فقد اختلف أصحاب السير والمؤرخون في تحديد ذلك على أقوال ثلاثة:

القول الأول: وهو الذي جنح ومال إليه أغلب المؤرخين أنّ مبدأ إرسالها كان سنة ست من الهجرة النبوية في شهر ذي الحجة، ومن القائلين بهذا الرأي: الإمام ابن جرير الطبري، وابن الأثير، والحافظ ابن حجر العسقلاني، وصفي الدين المباركفوري

القول الثاني: يرى بعض المؤرخين وأصحاب السيّر أنّ تاريخ إرسالها كان سنة سبع من الهجرة، وممّن قال بذلك الإمام ابن سعد في الطبقات، والإمام البلاذري، والإمام المنصور فوري.

القول الثالث: يرى الإمام الذهبي صاحب السيّر أنّ تاريخ إرسالها كان سنة ثمان من هجرته عليه الصلاة والسلام، وروي أيضا عن الإمام ابن الأثير.

المثال الأول: رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قيصر ملك الروم:

لقد استافض في كتب السنة والسيرة تخصيصه عليه الصلاة والسلام لعظيم الروم برسالة يدعوه فيها إلى دين الإسلام، وأوكل مهمة تبليغ هذه الرسالة الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه هذه الرسالة

---

[1] - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة - كامل المهندس، ص 177.

[2] -ينظر: أدب الرسائل في صدر الإسلام، ص 11.

[3] -المرجع نفسه: ص 10.

نصّ الرسالة:

أخرج الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما -. فيما أخبره به أبو سفيان - رضي الله عنه- أنّ هرقل ملك الروم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى ليدفعه إليه، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: «بسم الله الرحمان الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتّبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام،أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليّت فإنّ عليك إثم الأريسيّن» و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون»[1].

التحليل البلاغي لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل

لقد حوت هذه الرسالة المباركة التي بعث بها النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى هرقل دررا من فنون البلاغة بأنواعها الثلاثة: المعاني، البيان، البديع، وهذا ما أسعى لتجليته وإيضاحه في ثنايا تحليل مضامين هذه الرسالة.

أوّل ما يلفت نظر المطالع والقارئ لهذه الرسالة، هو تصديره وافتتاحه عليه الصلاة والسلام لها بالبسملة تأسيا واقتداء بكتاب الله تعالى الذي افتتحت سوره بالبسملة، كما أنّ السنة جارية وقاضية بتصدير الرسائل والمكاتبات بالبسملة، وفي بيان ذلك يقول الإمام القسطلاني - رحمه الله -: «... فيه استحباب تصدير الكتب بالبسملة، وإن كان المبعوث إليه كافرا»[2].

هذا وفي البسملة من مباحث علم المعاني الإيجاز بالحذف، وتفسيره، هو حذف متعلق الجار والمجرور لكثرة الاستعمال، ولفهمه من السياق، ولتذهب معه النفس كل مذهب في المقام، وتقدير الكلام: بسم الله أكتب، لأنّ الكتابة هي الأمر الذي جعلت التسمية مبدأ له.

وفيها أيضا إيجاز بالقصر، وذلك بتقديم ما حقّه التأخير، حيث قدّر الفعل المضارع المحذوف مؤخرا عن الجار والمجرور، لإفادة التخصيص، يقول الإمام أبو السعود - رحمه الله -: «وتقديم المعمول للاعتناء به، والقصد إلى التخصيص» [3]. فتقدير الكلام بهذا المعنى: بسم الله أكتب لا بسم غيره.

وفي عبارة: «بسم الله» أيضا من فنون البيان الاستعارة التصريحية التبعية، بيانها أنّ أصل وضع الباء هو للدلالة على الإلصاق حقيقة أو مجازا، ولكنها هنا للدلالة على التبرك والتيمن والاستعانة، فشبّه التبرك والتيمن والاستعانة بالإلصاق، واستعيرت الباء من جزئيات المشبّه به لجزئي من جزئيات المشبّه، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية في الحروف.

---

[1] - صحيح البخاري: كتاب العلم، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج 1، ص 8، رقم 07.

[2] - إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري: ج 1، ص 79.

[3] - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ج 1، ص 9.

وفيها أيضا فنّ التقديم والتأخير، حيث قدّم اسم الرحمان من أسماء الله الحسنى على الرحيم قصد المبالغة، فالرحمان عند المفسرين أبلغ من الرحيم، لشمول لفظ الرحمان للرحمة في الدنيا والآخرة، دون لفظ الرحيم المختص بشمول الرحمة في الحياة الدنيا فحسب، إضافة إلى اختصاص اسم الرحمان بالذات الإلهية فحسب، وتنزيله منزلة العلم ممّا يجعله قمينا بالتقديم، ليقرن بلفظ الجلالة، بخلاف الرحيم، فلا يختص بالله، ولا ينزّل منزلة العلم [1].

وفي لفظ البسملة من فنون المعاني ورود أسلوب الالتفات تخريجا على مذهب الإمام السّكاكي - رحمه الله -، وذلك بالاكتفاء بمجرد مخالفة مقتضى الظاهر، وعدم اشتراط سبق التعبير بطريق آخر، لأنّ مقتضى الظاهر في التوجه إلى الله بالخطاب أن يقال: باسمك اللهم [2].

وفيها أيضا فنّ الإدماج، وذلك بتضمين الكلام المسوق لغرض آخر، إذ الأصل في إيراد البسملة هو غرض التيمن والتبرك باسم عزّ وجلّ - غير أنّه أدمج وأدرج معه غرض آخر وهو الثناء على الله تعالى بكون رحمانا رحيما [3].

هذا فيما تعلق بما احتوت واشتملت عليه جملة البسملة من فنون البلاغة، وأمّا عن مضمون الرسالة فقد كانت هي أيضا غنية بمسائل البيان وملحه، وممّا يستحق التنبيه والوقوف عنده من مباحث البيان فيها:

- **أسلوب التعريض**: تضمنت الرسالة تعريضا بالنصاري، وبيان ذلك في عبارة النبي -صلى الله عليه وسلم - عندما وصف نفسه بالعبودية في قوله لهرقل معرفا بهوية المرسل للرسالة: «من محمد ابن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم»، ففي ضمن هذه العبارة تعريض بالنصاري الذين ادّعو بنوتهم لله تعالى عندما قال الله تعالى على لسانهم: «وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحبّاؤه» قال الإمام القسطلاني - رحمه الله -: «وصف نفسه الشريفة بالعبودية تعريضا لبطلان قول النصارى في المسيح أنّه ابن الله، لأنّ الرسل مستوون في أنّهم عباد الله» [4].

- **أسلوب التقديم والتأخير** : تضمنت الرسالة تقديما جريا على قاعدة الترقي من الأدنى إلى الأعلى، واتضح ذلك في تقديم لفظ العبودية على لفظ الرسالة، يقول الإمام الكرماني -رحمه الله -: «وقدّم ذكره على رسول الله ليصير من باب الترقي» [5].

-**أسلوب الاحتراس والتعريف والاقتباس** في جملة: «السلام على من اتبع الهدى»

لقد حوت تحية وسلام النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل على نفائس بيانية، يأتي في طليعتها إيراد المحسن البديعي الاحتراس في عبارة «اتّبع الهدى» وذلك قصد دفع ما يمكن أن يتوهمه البعض من أنّ القصد من السلام هو

---

[1] - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ج 1، ص 11.

[2] - ينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: ص 589.

[3] - ينظر: حاشية المناوي على شرح حلية اللب المصون في شرح الجوهر المكنون للدمنهوري، مخلوف المناوي، ص 3 - 6.

[4] -ينظر: إرشاد الساري، ج 1، ص 79.

[5] -الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: ج 1، ص 61.

الدعاء والإيناس والأمان لكل مخاطب، وإنّما ذلك فقط لمن اتبع هدى الله عملا وآمن به عقيدة، وفي هذا إغراء للمخاطب باتباع الهدى، ليكون من بين أهل السلام والبراءة والخلاص من الشرور والآفات، وهي ملوحة من وجه إلى آخر إلى أنّه لا أمان ولا سلام ولا نجاة لمن حاد عن الهدى، أو عاداه، وكأنّ هذه الطريقة الواعية في الصياغة تطوي وراءها وعدا ووعيدا، وإغراء وتحذيرا»[1].

وممّا اشتملت عليه هذه العبارة أيضا من مباحث البيان أسلوب التعريف، وذلك في تعريف لفظة «الهدى» بأداة التعريف «أل» قصد الدلالة على العهد الذهني ؛ فليس المقصود اتباع أيّ هدى، بل المراد اتباع هدي الله تعالى الذي هو أكمل الهدي، والذي أنزله على نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم[2].

كما اشتملت هذه العبارة «سلام على من اتبع الهدى»على فنّ الاقتباس، وذلك في اقتباس اتبع الهدى» من قوله تعالى: «والسلام على من اتبع الهدى»، حيث ضمّن النبي - صلى الله عليه وسلم- رسالته شيئا من القرآن،يظهر فيه تأثره بالقرآن وعمله به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله، والفرق بين العبارتين هو سقوط الواو من لفظة النبي - صلى الله عليه وسلم - وثبوتها في الآية القرآنية،ولهذا الاقتباس أثره في تزيين الرسالة وتمليحها، وتفخيم شأنها وتعظيمها.

- أسلوب الفصل:

ممّا حوته الرسالة من مباحث علم المعاني، هو اشتماله على أسلوب الفصل الوارد في عبارة النبي - صلى الله عليه وسلم -: «أمّا بعد» فهذه كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى أسلوب، وتقديرها: مهما يكن من شيء فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، وإتيانه بها عليه الصلاة والسلام في هذا المقام بغرض الفصل بين البسملة التي وطأ بها رسالته، وتعريفه بنفسه بكونه هو المرسل للرسالة وتعريف المرسل إليه وهو هرقل عظيم الروم، ثمّ القاء تحية السلام عليه، لينتقل بعد ذلك كلّه إلى مضمون الرسالة، فحسن هذا الفصل وكان أبلغ من الوصل لما فيه من شدّ انتباه مستقبل الرسالة وإقباله على المكتوب إليه بكل رعاية واهتمام.

- أسلوب التوكيد:

ممّا انطوت عليه الرسالة أيضا من موضوعات المعاني، هو مجيئ أسلوب التوكيد في عبارة النبي - صلى الله عليه وسلم -: «إنّي أدعوك بدعاية الإسلام»، حيث أكّد عليه الصلاة والسلام هذه الجملة بإن، واسمية الجملة، وتكرار إسناد الفعل، حيث أسند مرّة إلى اسم إنّ، ومرّة أخرى إلى الضمير المستتر وهو الفاعل تثبيتا لهذا المعنى في نفس المتلقي، وتمكنه من نفسه، وحرصه عليه[3].

- محسّن الجناس

---

[1] - ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، محمد محمد أبو موسى، ص 478.

[2] - من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص 863.

[3] - المرجع نفسه: ص 865.

هذا وممّا اشتملت عليه الرسالة من فنون البديع، محسن الجناس الاشتقاقي في عبارة: «أسلم تسلم»، يقول الإمام القسطلاني - رحمه الله -: «وقوله: أسلم تسلم، فيه غاية الاختصار ونهاية الإيجاز والبلاغة وجمع المعاني، مع ما فيه من الجناس الاشتقاقي، وهو أن يرجع اللفظان في الأصل إلى اشتقاق أصل واحد» [1]، فالأصل الاشتقاقي للفعلين: أسلم وتسلم واحد وهو: «سلم»، والفرق بينهما أنّ الأول فعل أمر يحثه فيه على الدخول إلى دين الإسلام، والثاني جوابه بمعنى السلامة، فيكون المعنى وتقدير الكلام اعتنق دين الإسلام الذي آمرك به، لتصحبك السلام في دنياك وآخرتك، وورود مثل هذه الأساليب في كلامه عليه الصلاة والسلام يكون على السليقة دون تكلف وتعنت، بخلاف الكتاب والخطباء من الناس الذين يتكلفون السّجع وغيره من الأساليب تزيينا للكلام مع أنّ المعنى لا يقتضيه ولا يتطلبه.

- أسلوب الإيجاز:

هذا وممّا انطوت عليه أيضا رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل عيم الروم ضربا من الإيجاز الذي هو أحد فنون علم المعاني، وقد تجلّى ذلك في الجملتين الطلبيتين: «أسلم تسلم»، وتفسير ذلك وبيانه أنّ جملة جواب الأمر فيهما لفعل محذوف، والتقدير: «أسلم فإن تسلم تسلم»، «وأسلم فإن تسلم يؤتك الله أجرك مرتين»[2]. وقد نبّه على هذا الإيجاز البليغ بشيء من الاقتضاب القاضي عياض - رحمه الله - بقوله: «وقوله صلى الله عليه وسلم: « أسلم تسلم» من محاسن الكلام وبليغه وإيجازه واختصاره، وجمع بقوله -صلى الله عليه وسلم: «تسلم» نجاة الدنيا من الحرب والخزي بالجزية، وفي الآخرة من العذاب»[3].

- الاستعارة التبعية: هذا وممّا تضمنته الرسالة من محاسن البيان الاستعارة التبعية في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «فإن توليت»وتفسيرها: أنّ حقيقة التولي هو الإعراض بالوجه، لكنّه استعمل هنا مجازا في إعراض هرقل عن دين الإسلام الذي دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، فشبّه الرفض من قبل هرقل والإعراض عن الإسلام بإشاحة الوجه والإعراض به، فحذف المشبّه، وصرّح بالمشبّه به الذي هو التولي، يقول الإمام العيني - رحمه الله-: «... وحقيقة التولي إنّما هو بالوجه، ثمّ استعمل مجازا في الإعراض عن الشيء، قلت: هذا استعارة تبعية» [4]، وقال الحافظ ابن حجر أيضا: «وحقيقة التولي إنّما هو بالوجه، ثمّ استعمل مجازا في الإعراض عن الشيء، وهي استعارة تبعية» [5].

-أسلوب القصر:

---

[1] - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ج 1، ص 79.

[2] - من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص 868.

[3] - إكمال المعلم بفوائد مسلم: ج 6، ص 123.

[4] - عمدة القارة في شرح صحيح البخاري: ج 1، ص 95.

[5] - فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج 1، ص 39.

ممّا حوته هذه الرسالة الشريفة من مسالك علم المعاني أسلوب القصر الوارد في تقديم خبر إنّ على اسمها، وذلك في عبارته عليه الصلاة والسلام: «فإن توليت فإنّ عليك إثم الأرسيّين» حيث جاء تقديم خبر إنّ وهو «عليك» على اسمها الذي هو: «إثم الأرسيّين» وقد أفاد هذا التقديم قصر وحصر إثم الأرسيّين في ذمة هرقل، ونفيه عمّا سواه، يقول الإمام الكرماني -رحمه الله -: «وتقديم لفظ «عليك» على اسم «إنّ» مفيد للحصر، أي ليس إثمهم إلاّ عليك» [1].

- أسلوب الإيجاز

ممّا اشتملت عليه هذه الرسالة أيضا من موضوعات علم المعاني، هو الإيجاز بالحذف، وذلك في جملة: «فإن توليت فإنّ عليك إثم الأرسيّين»، لأنّ تقدير الكلام فإنّك إن توليت فإنّ عليك إثمك وإثم الأرسيّين، فهو يحمل إثمهم لكونه متسببا في عدم إيمانهم، ويحمل إثمه لإعراضه عن الإيمان واتباع هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول الإمام ابن حجر -رحمه الله -: «... وفي الكلام حذف دلّ المعنى عليه، وهو: فإنّ عليك مع إثمك إثم الأريسيّين؛ لأنّه إذا كان عليه إثم الأتباع بسبب أنّهم اتبعوه على استمرار الكفر، فلأن يكون عليه إثم نفسه أولى»[2].

- أسلوب الاقتباس:

من محاسن هذه الرسالة الشريفة مجيئ فنّ الاقتباس في ثناياها، فممّا جاء فيها من هذا الفنّ البلاغي إضافة لماذكرناه سابقا، هو اقتباس النبي -صلى الله عليه وسلم - لآية قرآنية من سورة آل عمران ضمنها رسالته إلى هرقل، وذلك في قوله: «، فإن توليّت فإنّ عليك إثم الأريسيّن» و يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون»، والحكمة في تضمين هذه الرسالة هذه الآية على وجه الخصوص، هو ما يعلم من حال هرقل من كونه من أهل الكتاب الذي لهم معرفة بالإنجيل وما جاء فيه من الإخبار عن نبوة النبي صلى الله وسلم ورسالته، فينقاذ ويذعن للإيمان والإسلام، وفي سرّ هذا الاقتباس وغايته يقول الدكتور إبراهيم طه الجعلي: «... المدعو إلى الدخول في الإسلام رجل من أهل الكتاب، فعنده إلمام بلغة السماء، فتضمين الرسالة نصا من القرآن الكريم كتاب الإسلام كان في منهى الحكمة، حيث يدعو ذلك هرقل إلى مقارنه ذلك بما عنده مكتوبا في الإنجيل، فلعلّ هذه المقارنة تهديه إلى طريق الرشاد، فيسلم مع محمد - صلى الله عليه وسلم - لله ربّ العالمين»[3].

- المجاز المرسل:

---

[1] - الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: ج 1، ص 61.

[2] - فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج 1، ص 39.

[3] - ينظر: أضواء على البلاغة النبوية، ص 33.

ممّأ تضمنته رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم - لهرقل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، وذلك في إطلاق الكلمة والمراد بها الكلام في قوله تعالى: «ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله» وإطلاق لفظ الكلمة على الكلام من أساليب العرب التي جاء بها التنزيل ن مثل قوله تعالى: «كلا إنّها كلمة هو قائلها» يقول الإمام أبو حيّان -رحمه الله -: «وعبّر بالكلمة عن الكلمات ؛ لأنّ الكلمة قد تطلقها العرب على الكلام، وإلى هذا ذهب الزّجاج، إمّا لوضع المفرد موضع الجمع...وإمّا لكون الكلمات مرتبط بعضها ببعض، فصارت في قوة الكلمة الواحدة إذا اختلّ جزء منها اختّلت الكلمة»[1].

- الاستعارة المكنية:

ممّا تضمنته هذه الرسالة أيضا من أفانين علم البيان، صورة الاستعارة المكنية في الآية الكريمة المقتبسة من سورة آل عمران في قوله تعالى: «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم»، وتفسيرها هو تشبيه بالمكان أو النادي يدعى إليه للاجتماع لأمر ما، ثمّ حذف المشبّه به، وأتي بشيء من لوازمه وأثبت للمشبّه على سبيل الاستعارة المكنية، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور - رحمه الله -: «وتعالوا هنا مستعملة في طلب الاجتماع على كلمة سواء وهو تمثيل: جعلت الكلمة المجتمع عليها بشبه المكان المراد الاجتماع عنده...» [2].

-أسلوب القصر:

حوت هذه الرسالة أيضا من درر علم المعاني أسلوب القصر الواقع بطريق النفي والاستثناء، والوارد في الآية الكريمة المقتبسة من سورة آل عمران، وذلك في قوله تعالى تعالى: «ألاّ نعبد إلاّ الله»، حيث قصرت العبادة على الله تعالى ونفيها عمّا سواه، والقصر بطريق النفي والإثبات يكون لأمر ينكره المخاطب، أو يشّك فيه، أو لما هو منزّل هذه المنزلة، كما هو مصرّح به عند البلاغيين [3]، فجاء القصر في هذا الموضع بطريق النفي والاستثناء مناسبة للمقام والسياق.

هذا ما أردنا بيانه من ذكر أهمّ ما اشتملت عليه هذه الرسالة المنيفة الصادرة من مشكاة النبوة من مباحث البلاغة ودرر البيان، فقد جاءت جامعة لجوامع الكلم المتضمن لقلة الكلام وكثرة المعاني، ساقها النبي عليه الصلاة وأزكى التسليم في قالب الداعي إلى دين الإسلام المشفق الحريص على اتباع البشرية لدين الله الذي ارتضاه لهم وهو دين الإسلام، مضمّنا إيّاها من بديع الكلام، وجميل القول، وفصيح المنطق ما يتعذر استيفاؤه، ويصعب استقصاؤه، ولكن حسبنا الاكتفاء بما تتم به الحاجة، وقد قيل: «حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق»

---

[1] - تفسير البحر المحيط: ج 3، ص 194.

[2] - التحرير والتنوير: ج 3، ص 268.، وينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، 876.

[3] - ينظر: دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص 332، وعلوم البلاغة، المراغي، ج 1، ص 152.

و لنختم الحديث عن بلاغة وبراعة هذه الرسالة بما ذكره الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بقوله: «... وقد اشتملت هذه الجمل القليلة التي تضمنها بعض هذا الكتاب على الأمر بقوله: «أسلم»، والترغيب بقوله: «تسلم»، والزجر بقوله: «فإن توليت»، والترهيب بقوله: «فإنّ عليك»، والدلالة بقوله: «يا أهل الكتاب»، وفي ذلك من البلاغة ما لا يخفى، وكيف لا، وهو كلام من أوتي جوامع الكلم» [1].

المثال الثاني: رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم - إلى النّجاشي ملك الحبشة

«بسم الله الرحمان الرحيم، من محمد رسول الله إلى النّجاشي ملك الحبشة، سلم أنت، فإنّي أحمد إليك الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أنّ عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول، الطيّبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والمولاة على طاعته، وأن تتّبعني وتؤمن بالذي جاءني ؛ فإنّي رسول الله، وإنّي أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلّغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتّبع الهدى» [2].

لقد استهلّ النبي -صلى الله عليه وسلم -رسالته إلى النجاشي ملك الحبشة بما استهلّ به رسالته إلى عظيم الروم، فافتتحها بالبسملة، ثمّ أردفها بذكر اسم المرسل والمرسل إليه، ثمّ ألقى إليه التحية بقوله له: «سلم أنت» وفي ثنايا هذه العبارة من محاسن البيان، حسن انتقاء الألفاظ الدالة والمشعرة بالسلامة والأمن والجالبة للاطمئنان، وفي ضمنها - هذه العبارة - من فنون علم المعاني أسلوب التقديم، وذلك في تقديمه عليه الصلاة والسلام للخبر وهو لفظة سلم على المبتدأ على الخبر الذي هو ضمير المخاطب أنت، وفي طيّات هذا التقديم من اللطائف والملح هو حسن انتقاء الألفاظ اللينة الناعمة الموحية بالأمان اختارها صلوات ربي وسلامه عليه لتكون أوّل ما يقرع سمع النجاشي فيرتاح لما يتلى عليه من الكلام المضمن في الخطبة، وهذا من براعة الاستهلال عند البيانيين [3].

-أسلوب التوكيد و التقديم

بعد استهلاله عليه الصلاة والسلام للرسالة بالبمسلة وإلقاء التحية للملك المرسل إليه، استأنف في رسالته حديثا جديد، وهو حمده لله تعالى والثناء عليه بما هو أهل له من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وقد أكّد هذا الحمد للنجاشيّ بأداة التوكيد «إنّ»، واسمية الجملة، وتكرار إسناد الفعل، وذلك بإسناده تارة إلى اسم إنّ، وأخرى إلى الضمير المستتر وهو الفاعل، وذلك قصد تقريره تقرير مؤكدا في ذهن النجّاشي، وانتقى لصيغة الحمد الفعل المضارع: «أحمد» وصيغة المضارع فيها من دلالات التجديد والاستمرار ما يشعر بأنّ هذا الحمد ثابت ودائم لله في جميع الأحوال، ومن محاسن هذا الحمد المضمّن في ثنايا الرسالة هو وروده ومجئيه بأسلوب

---

[1] - ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج 1، ص 39 -40.

[2] -ينظر: تاريخ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج 2، ص 652، وينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج 3، ص 601 -- 602.

[3] - ينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص 886.

التقديم، وذلك في تقديم الجار والمجرور «إليك» على المفعول به وهو لفظ الجلالة «الله» وغرضه الاهتمام والاعتناء،فمن شأن الكلام أن يقدّم ما هو أولى للاهتمام والاعتناء به، فقدّم الجار والمجررو على المفعول قصد الاهتمام بتعيين المخاطب، فيكون تقدير الكلام: أحمد إليك لا إلى غيرك.

- أسلوب الاقتباس

ممّا اشتملت عليه هذه الرسالة أيضا من محاسن البديع هو مجيء أسلوب الاقتباس فيها، وقد تجلّى ذلك في اقتباسه عليه الصلاة والسلام لأسماء الله في قوله للنجاشيّ: «فإنّي أحمد إليك الله الذي لاإله إلاّ هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن» فقد اقتبس -صلى الله عليه وسلم - هذه الصفات من القرآن الكريم في سورة الحشر في قوله تعالى :﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الحشر: ٢٣]، وقد أضفى هذا الاقتباس على حدّ تعبير البعض على الرسالة ضربا رائعا من الحسن، وخلعا عليها لونا بديعا من الجمال، وهكذا تكون الجملة القرآنية، إذا اقتبسها بليغ حاذق[1].

وقد أبان الدكتور محمد أبو موسى سرّ اختياره وانتقاءه عليه الصلاة والسلام لهذه الأسماء والصفات دون بقية الأسماء الأخرى بقوله: «ثمّ إنّ اختيار هذه الأسماء وأنّه -عليه السلام- لم يقل مثلا: «أحمد إليك الله القهار الجبار المتكبر» ضرب من الملاءمة الخفية، فقد ذكر من الكمالات المطلقة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وهذه الكمالات المطلقة لا يتسع الوجود إلاّ لواحد منها، فلا يتصور في الوجود ملك مطلق الملك ليس لملكه حدود إلاّ ملك واحد، وكل ملك بعد هذا الملك، وكلّ قداسة بعد هذه القداسة، وكلّ هيمنة بعد هذه الهيمنة، إنّما هي ناقصة لا محالة ؛ لأنّ الكمالات المطلقة لا تتعدّد، ولو تعدّدت لم تكن كمالات»[2].

- أسلوب القصر:

ممّا حوته هذه الرسالة البليغة من فنون علم المعاني، هو ورود أسلوب القصر الحقيقي فيها، وذلك في جملة: «لا إله إلاّ هو» وقد جاء هذا القصر بأداتي النفي والاستثناء، وهما أبلغ أدوات القصر، وغالب مجيئ القصر بهما يكون فيما ينكره المخاطب، أو شاكا فيه، ووقع القصر بهذه الجملة قصد إثبات صفة الألوهية لله تعالى، ونفيها عمّا سواه من كلّ من ادّعى الألوهية أو ادّعت له، وهذا النوع من القصر هو من القصر الحقيقي ؛ لأنّ المنفي عام، وذلك ما يطابقه الواقع وتؤكده الشواهد[3].

---

[1] - ينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص 890.

[2] - ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، ص 495.

[3] - ينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص 891.

ومن محاسن هذا القصر أنّه استهلّ وابتدئ بالنفي، ومن شأن النفي في هذا تفريغ القلب أصلا، وتطهيره من الأغيار، وصقل لجوهره وتهيئة له لاستجلاء الأنوار، وحصول الأسرار، فإذا أصبح خاليا كان أقرب إلى ارتسام التوحيد فيه، وامتلائه بسلطانه، وإشراق نور الله عزّ وجلّ عليه[1].

كما ظرف هذا القصر بمجيئه أيضا على سبيل التنكير، وذلك في لفظة «إله» فقد وقعت نكرة في سياق النفي لتفيد العموم والشمول، ليكون العموم مستغرقا لكل أفراد ذلك المفرد، ما عدا المستثنى من ذلك وهو الله جلّ وعلا[2].

-أسلوب الاحتراس:

ممّا تضمنته هذه الخطبة أيضا من محاسن البديع، هو فنّ الاحتراس الواقع في لفظة «القدّوس» فقد جاء هذا الاسم عقب صفة الملك التي ابتدأ بها النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته في هذه الرسالة، وإنّما أعقب اسم القدوس عقب صفة الملك احترازا واحتراسا ممّا يتوهم في بعض النفوس من صفات الملوك من الغرور والظلم والاستبداد وغير ذلك من الصفات المعروفة لبعض ملوك الدنيا، فجاء هذا الاسم لدفع ذلك وبيان أنّ جلّ علا وعلا منزّه ومبرأ عن كلّ ما يشين أو يقدح في ملكه من النقائص، يقول الشيخ الطاهر ابن عاشور -رحمه الله -: «وعقّب بالقدوس وصف الملك للاحتراس إشارة إلى أنّه منزّه عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشهوات ونحو ذلك من نقائص النفوس»[3].

وفي قوله تعالى: «القدّوس السلام» تتميم للاحتراس، وذلك في تعقيبه اسم السلام بعد اسم القدّوس، فبعد احتراسه بالأولّ لتنزيه ذاته جلّ وعلا من نقائص الملوك التي منها الجور والغرور، احترس بالسلام للدلالة على العدل في معاملته للخلق، وهو من التتميم للاحتراس الأول.

كما أنّ في تعقيبه لفظ السلام بلفظ المؤمن إتمام للاحتراس من توهم وصفه جلّ وعلا: «بالملك» أنّه كالملوك المعروفين بالنقائص، فأفيد أوّلا نزاهة ذاته بوصف القدّوس، ونزاهة تصرفاته المغيبة عن الغدر والكيد بوصف المؤمن، ونزاهة تصرفاته الظاهرة عن الجور والظلم بوصف السلام[4].

- محسّن الاطراد:

ممّا حوته وتضمنته هذه الخطبة المنيفة أيضا من المحسنات البديعية المعنوية، لون بديعي يعرف بالاطّراد، وهو عند البلاغيين: «ذكر اسم الممدوح واسم من يمكن من آبائه على ترتيب الولادة ليزداد إبانة وتوضيحا على ترتيب صحيح ونسق مستقيم، من غير تكلف ولا تعسف، فيكون كالماء الجاري رقة وانسجاما»[5]، وقد ورود في هذه

---

[1] -ينظر: معنى لا إله إلاّ الله: ص 82.

[2] - المرجع نفسه: ص 90.

[3] - التحرير والتنوير: ج 28، ص 120.

[4] - ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج 28، ص 21.

[5] - ينظر: علوم البلاغة، محمد مصطفى المراغي، ص 348 .

الخطبة عند قوله -صلى الله عليه وسلم -: «عيسى بن مريم» حيث أتى عليه الصلاة والسلام باسم عيسى عليه السلام، ثمّ باسم أمّه بناء على ترتيب الولادة بلا تكلف ولا تعسّف، حتّى جاء ذلك منه كالماء الجاري سهولة وانسجاما، وفي هذا الاطرادّ ضرب من الإبانة والتوضيح، لأنّ «عيسى بن مريم أوضح وأبين من «عيسى» فقط [1].

- الإيجاز بالحذف:

ممّا تضمنته هذه الخطبة الشريفة أيضا من درر علم المعاني أسلوب الإيجاز بالحذف في قوله -صلى الله عليه وسلم - : «روح الله وكلمته» ففي ثنايا هذه الجملة إيجاز بالحذف وتقدير الكلام: روح الله وأثر كلمته، وقد حذف ذلك لوضوحه وجلائه، إضافة لقصد الإيجاز والاختصار في الأسلوب.

- المجاز العقلي:

ممّا زخرت به هذه الخطبة أيضا من مباحث علم البيان، توظيف أسلوب المجاز العقلي في قوله -عليه الصلاة والسلام -: «وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة» ففي هذه العبارة مجاز عقلي علاقته السببية، لأنّ الله هو الذي أمر بالإلقاء، والذي قام به هو جبريل عليه السلام [2].

- التشبيه التمثيلي:

ممّا احتفت به هذه الرسالة من درر البيان وفنونه، وقوع التشبيه التثميلي في الآية المقتبسة من القرآن، والمضمنة في هذه الخطبة، وذلك في قوله تعالى: «إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون».

فقد شبّه المولى جلّ وعلا صورة خلق عيسى بصورة خلق آدام عليهما السلام في كونهما خلق من غير أب، لا في الخلق من تراب، فيكون القصد من هذا التشبيه هو إبطال ما ادّعاه النصارى من بنوة عيسى عليه السلام وأنّه ابن الله لكونه خلق من غير أب وخلق بكلمة الله، فنبي الله آدم خلق من غير أبوين أصلا، فهو أعجب في الخلق من خلق عيسى عليه السلام، وهو الأحق بالتأليه على تقدير أنّ ولادتهما تخالف ولادة البشر، وهذا عند البيانيين من تشبيه الغريب بالأغرب قصد إفحام الخصم وإبطال حجته في الخصومة والمناظرة، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور - رحمه الله -: «... ومحلّ التمثيل كونهما خلق من دون أب، ويزيد آدم بكونه من دون أمّ أيضا، فلذلك احتيج إلى ذكر وجه الشّبه بقوله: خلقه من تراب، الآية، أي خلقه دون أب ولا أم، بل بكلمة كن، مع بيان كونه

[1]- ينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص893-894.

[2] - المرجع نفسه: ص 895.

أقوى في المشبّه به على ما هو الغالب، وإنّما قال عند الله أي نسبته إلى الله لا يزيد على آدم شيئا في كونه خلقا غير معتاد لكم، لأنّهم جعلوا خلقه العجيب موجبا للمسيح نسبة خاصة عند الله وهي البنوة...» [1].

- الإيجاز بالحذف:

ممّا حوته هذه الخطبة أيضا من مسائل علم المعاني، أسلوب الإيجاز بالحذف الوارد في قوله عليه الصلاة والسلام للنّجاشي «أدعوك إلى الله» ففي الكلام حذف مضاف تقديره: أدعوك إلى عبادة الله، وحذف المضاف ضرب من ضروب الإيجاز القصد منه اختصار الكلام وتحنب الثقل والإطناب.

- الاستعارة التصريحية التبعية

ممّا تضمنته هذه الخطبة المنيفة من درر البيان، صورة الاستعارة التصريحية التبعية في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «وقد بلّغت» ؛ لأنّ أصل التبليغ والبلاغ جعل الشيء بالغا وواصلا إلى المكان المقصود،فشبّه الإعلام بالتبليغ، ثمّ حذف المشبّه، وصرّح بلفظ المشبّه به، واشتق منه: «بلّغت» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وفي ضمن هذا التصوير إخراج للمعقول الذي هو الإعلام في صورة المحسوس الذي هو التبليغ [2].

- براعة التخلص وحسن الختام

إنّ المستشف لهديه عليه الصلاة والسلام في خطّ الرسائل، وإلقاء الخطب، يتضح له بجلاء مراعاته لحسن ختام الكلام، ومن هديه في ذلك الختم بتحية السلام، فهذه تكون معلما وملمحا خاصا لجّل رسائله وخطبه، وقد نبّه على ذلك الإمام القلقشندي - رحمه الله- بقوله: «وكان يختم كتبه بالسلام تارة، فيقول في خطاب المسلم: «والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته»، ويقول في خطاب الكافر: «والسلام على من اتّبع الهدى»، وربّما أسقط السلام من آخر كتبه»[3].

ولفظة السلام تحمل بين جنباتها معاني جمّة، أصلها ومرّدها عائد إلى الأمن والأمان، والطمأنينة والاطمئنان، والنّجاة، المجانب للخوف والفزع، والرّعب والهول، والهلاك، وقد سيق السلام في عبارة الختام معرفا، وللتعريف فيه قصد مجانبة التكرار للسلام الأول الوارد في مقدمة الرسالة، كما كان الغرض منه مناسبة الافتتاح والاختتام باسم من اسماء الحسنى، فقد افتتحت بلفظ الجلالة، واختتمت كذلك باسم من أسمائه الحسنى وهو السلام، وهذا في غاية الحسن[4].

---

[1] - التحرير والتنوير: ج 3، ص 263.

[2] - ينظر: من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام: طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة، ص 904 .

[3] -ينظر: صبح الأعشى، ج 6، ص 366.

[4] - ينظر: بدائع الفوائد، ابن القيم، ج 2، ص 635 -636.

وفي هذا الذي ذكرناه في هذا المقام من بيان أظهر وأبرز ما انطوت عليه هذه الرسالة من مباحث البلاغة كفاية، إذ القصد إيقاف الطالب على بلاغة الرسائل النبوية وفصاحتها، وحجتها وقوتها في الإقناع والتأثير، وحسن انتقاء الألفاظ واختيارها، والتي تتناسب مع الأسلوب الموظف، لتحقيق الأغراض والمقاصد المتوخاة منها.

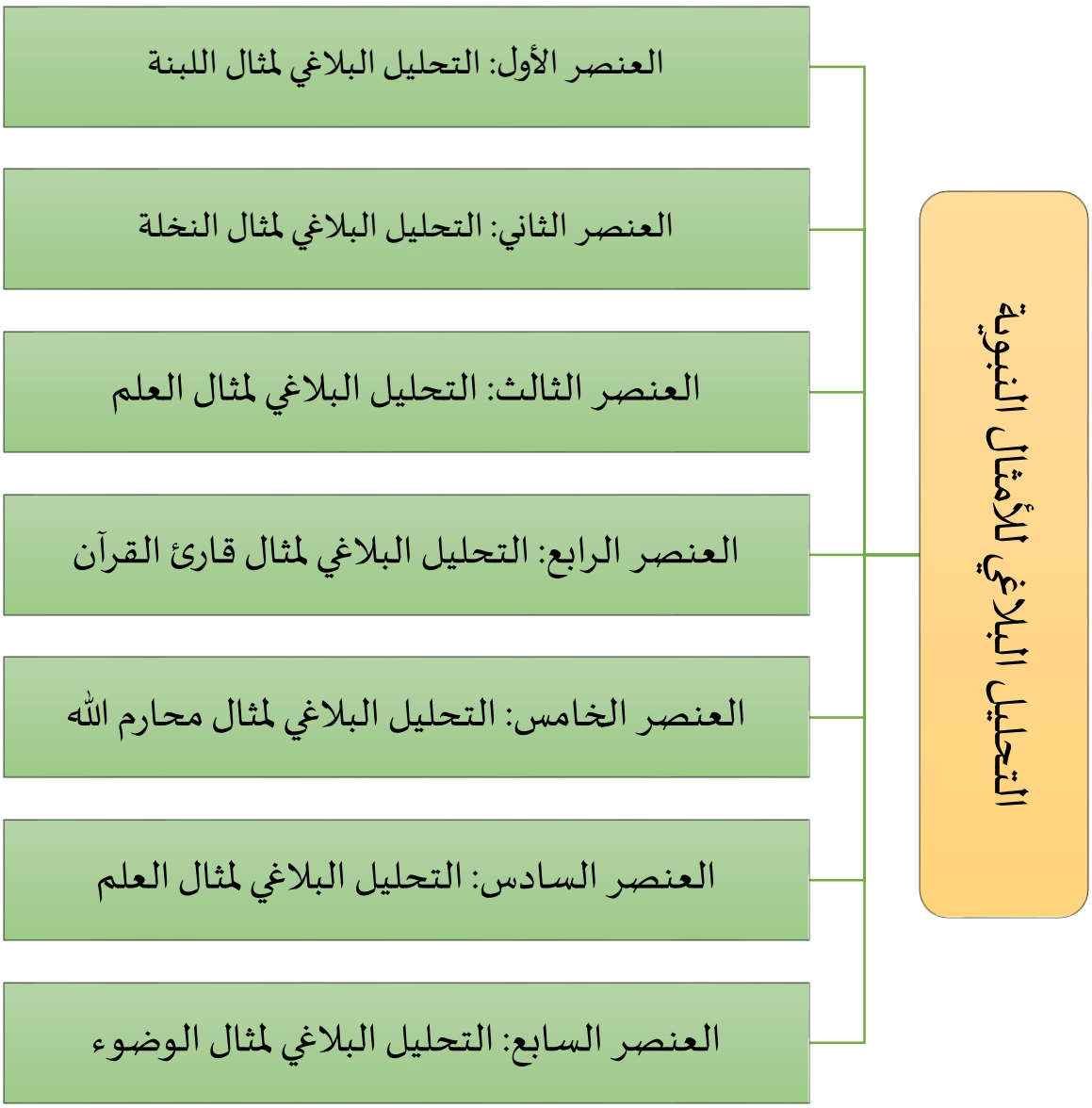
التحليل البلاغي للأمثال النبوية
العنصر الأول: التحليل البلاغي لمثال اللبنة
العنصر الثاني: التحليل البلاغي لمثال النخلة
العنصر الثالث: التحليل البلاغي لمثال العلم
العنصر الرابع: التحليل البلاغي لمثال قارئ القرآن
العنصر الخامس: التحليل البلاغي لمثال محارم الله
العنصر السادس: التحليل البلاغي لمثال العلم
العنصر السابع: التحليل البلاغي لمثال الوضوء

المحاضرة 9

المثل الأول:

المسألة الأولى: نص الحديث

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «حدّثنا قتيبة بن سعيد، حدّثنا إسماعيل بن جعفر، عن عبد الله بن دينار، عن أبي صالح،عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا، فأحسنه وأجمله إلاّ موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويتعجبون ويقولون هلاّ وضعت هذه اللّبنة ؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» [1].

المسألة الثانية: بيان الغريب

قوله: فأنا اللّبنة: هي بفتح اللّام وكسر الباء: واحدة اللبن، وهي التي يبنى بها الجدار. ويقال: بكسر اللام وسكون الباء» [2].

المسألة الثالثة: الجوانب البلاغية في المثل

لقد اشتمل هذا الحديث على روائع التمثيل والتصوير في أحلى صورة وأبهاها، قصد تقريب ما تضمنه من معاني وأحكام إلى الفهوم بطريقة موجزة في صورة مشبهة مجسّدة للحقيقة التي يراد تقريرها، وتأكيدها. وهذا شأن وديدن الأمثال النبوية المضروبة في مختلف الأغراض والمناسبات، وهذا النوع من التشبيه باعتبار وجه الشبّه هو تشبيه تمثيلي، لأنّ وجه الشبّه فيه منتزع من أمور متعدّدة، وبيان ذلك أنّه - صلى الله عليه وسلم - شبّه ما اتفق فيه هو وغيره من الأنبياء والرسل في أصول الشرائع والديانات، وما دعوا إليه من مكارم الأخلاق، وعظيم الفضائل، ونبيل الصفات، والنهي عن ضدّ ذلك كلّه بحال من بنى دارا، وبالغ في تشييدها، وأنفق ما أنفق في رفع عمادها وبنيانها بيد أنّه أخلى لبنة من ذلك البناء، فلم يضعها في موضعها، فبقي ذلك البنيان خداجا غير تام، فكان -صلى الله عليه وسلم- هو متمم ومكمل ذلك البناء، إذ عبّر عن نفسه بأنّه هو تلك اللبنة، ويصدّق ذلك ويؤيده ما أخبر به هو نفسه عندما قال: «إنّما بعثت لأتممّ مكارم الأخلاق» وأظهر من ذلك وأبين ما أخبر به ربّنا جلّ وعلا في كتابه عمّا جاء به - صلى الله عليه وسلم - في دعوته من الحق وتصديق المرسلين قائلا: «بل جاء بالحق وصدّق المرسلين»، ووجه الشبه هنا صورة اللبنة التي تمّمت ذلك البناء الذي كان في أعين الناظرين إليه ناقصا، وإنّما جرى التشبيه بالبناء لأنّه ممّا يعرفه الناس وتشدّ الأنظار إليه إذا كان حسنا جميلا في شكله وتصميمه، وإنّما كان عليه الصلاة والسلام هو اللبنة المتممة لذلك البناء لما خصت به شريعته ورسالته من التصديق تللك الرسالات والهيمنة عليها، قال الإمام بدر الدين العيني - رحمه الله - مبيّنا وجه الشبّه في هذا المثل وموضّحا إيّاه : «والمشبّه هنا واحد، والمشبّه به متعدد، فكيف يصح التشبيه ؟ ووجهه أنّه جعل الأنبياء كلهم كواحد فيما قصد في التشبيه، وهو أنّ المقصود من تعيينهم ما تمّ إلاّ باعتبار الكلّ، فكذلك الدار لم يتم إلاّ

[1] - صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، رقم 3535، ج 4، ص 186.

[2] - ينظر: النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات بن الأثير، ج 2، ص،229، الباب: حرف اللام، مادة: لبن.

بجميع اللبنات، ويقال: إنّ التشبيه هنا ليس من باب تشبيه المفرد بالمفرد، بل هو تشبيه تمثيلي، فيؤخذ وصف من جميع أحوال المشبّه ويشبّه بمثله من أحوال المشبّه به، فيقال: شبّه الأنبياء وما بعثوا به من إرشاد الناس إلى مكارم الأخلاق بدار أسّس قواعده ورفع بنيانه، وبقي منه موضع لبنة، فنبينا - صلى الله عليه وسلم - بتتميم مكارم الأخلاق، كأنّه هو تلك اللبنة التي بقي بها إصلاح ما بقي من الدار»[1].

المثل الثاني:

المسألة الأولى: نصّ الحديث

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «حدّثنا خالد بن مخلد، حدّثنا سليمان، حدّثنا عبد الله بن دينار،عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنّ من الشّجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنّها مثل المسلم، حدّثوني ما هي، قال: فوقع الناس في شجر البوادي قال عبد الله: فوقع في نفسي أنّها النخلة فاستحييت، ثمّ قالوا: حدّثنا يا رسول الله ما هي، قال هي النخلة»[2].

المسألة الثانية: بيان الغريب

قوله: «فوقع الناس في شجر البوادي»: أي ذهبت أفكارهم إلى ذلك وصارت إليه ولزموا ذكرها، كما يقع الطائر على الغصن[3].

«البوادي»: جمع بادية، وهي خلاف الحاضرة. والبدو مثل البادية، والنسبة إليهما بدوي، وعن أبي زيد: بداوي، وأصلها باء ودال وواو، من البدو وهو الظهور[4].

قوله: «فوقع في نفسي»: أي ألقي فيها وقام بها[5].

المسألة الثالثة: الجوانب البلاغية في الحديث

انطوى هذا الحديث على أسرار بيانية بديعة سبكها النبي - صلى الله عليه وسلم- في سياق ومقام بيان فضل المؤمن على غيره من الخلائق، وذلك عندما شبّه صفة المؤمن في عظيم نفعه، ودوام فضله، وكثره خيره، وانتفاع الناس به بحال النخلة المجمع على كثرة منافعها وجريان فوائدها، وعدم استغناء الخلق عن خيراتها وبركاتها، فالمسلم هو المشبّه، والنخلة هي المشبّه به، ووجه الشبّه الجامع بينهما هو كثرة الخير و دوام المنافع، وهذا النوع من التشبيه عند البيانين هو تشبيه مقلوب أو تشبيه منعكس، وهو الذي يجعل فيه المشبّه مشبّها به بادّعاء أنّ المشبّه أقوى وأظهر من المشبّه به في وجه الشبّه [6]، وهو جار على خلاف العادة، وبيان ذلك في الحديث أنّه عليه

---

[1] - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: ج 16، ص 98.

[2] - صحيح البخاري: كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، رقم 62، ج1، ص 22.

[3] - ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض، ج 2، ص 293.

[4] - ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، ج 2، ص 14.

[5] - ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض، ج 2، ص 293.

[6] - ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ص 239.

الصلاة والسلام قدّم ذكر الشجرة التي هي المشبه به، وأخرّ ذكر المؤمن الذي هو المشبّه فجعل النخلة في مقام المشبّه به، وممّا زاد هذا التشبيه رونقا وجمالا سوقه - صلى الله عليه وسلم- في مقام السؤال والاستفهام على سبيل المحاورة، وذلك قصد شدّ ولفت انتباه الحضور حتّى تذهب أنفسهم مع هذا المثل كلّ مذهب ليزيدهم شوقا لمعرفة أصل هذه الشجرة المباركة التي جعل المؤمن شبهها وصنوها، وعن وجه الشبه المنعقد في هذا التشبيه يحدّثنا الإمام بدر الدين العيني مبرزا ومظهرا للطرف الجامع بين المشبّه والمشبّه به قائلا: - رحمه الله -: «...واستعير المثل هنا كاستعارة الأسد للمقدام، للحال العجيبة أو الصفة الغريبة، كأنّه قيل: حال المسلم العجيب الشأن كحال النخلة، أو صفة المسلم الغريبة: كصفة النخلة، فالمسلم هو المشبّه، والنخلة هو المشبّه بها، وأمّا وجه الشبه فقد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجودها على الدوام، فإنّه من حين يطلع ثمرها لا يزال يأكل منه حتّى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة، من خشبها وورقها وأغصانها، فيستعمل جذوعا وحطبا وعصيا ومحاضر وحصرا وحبالا وأواني، وغير ذلك ممّا ينتفع به من أجزاءها، ثمّ آخرها نواها ينتفع به، علفا للإبل وغيره، ثمّ جمال نباتها وحسن ثمرتها وهي كلها منافع، وكذلك المؤمن خير كلّه من كثرة طاعته ومكارم أخلاقه ومواظبته على صلاته وصيامه وذكره والصدقة وسائر الطاعات، هذا هو الصحيح في وجه الشّبه. وقال بعضهم وجه التشّبيه أنّ النخلة إذا قطعت رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر، وقال بعضهم: لأنّها تموت إذا مزقت أو فسد ما هو كالقلب لها. وقال بعضهم لأنّ لطلعها رائحة المني، وقال بعضهم: لأنّها تعشق كالإنسان، وهذه الأقوال كلّها ضعيفة من حيث أنّ التشبيه إنّما وقع بالمسلم، وهذه المعاني تشمل المسلم والكافر» [1].

المثل الثالث:

المسألة الأولى:نصّ الحديث

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «حدّثنا محمد بن العلاء، قال: حدّثنا حماد بن أسامة عن بريد بن عبد الله، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا، وسقوا ورزعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنّما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» قال أبو عبد الله قال إسحاق: «وكان منها طائفة قيّلت الماء، قاع يعلوه الماء، والصفصف المستوي من الأرض» [2].

المسألة الثانية: بيان الغريب

---

[1] - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري:ج 2، ص 14.

[2] -صحيح البخاري: كتاب العلم، باب فضل من علم وعلّم، رقم 79، ج 1، ص 27.

قوله: «ومنها أجادب أمسكت الماء» أي أرض جدبة غير خصبة، قالوا هو جمع جدب على غير قياس وكان القياس لو كان جمع أجدب، لكنّهم قد قالوا "محاسن جمع حسن وكان قياسه أن يكون جمع محسن، وكذلك مشابه جمع شبه وجمعه مشبه، قال الأصمعي: الأجادب من الأرض مالم ينبت الكلأ» [1]، وقال الإمام ابن الأثير: «الأجادب صلاب الأرض التي تمسك الماء فلا تشربه سريعا. وقيل: هي الأرض التي لا نبات بها مأخوذ من الجدب، وهو القحط، كأنّه جمع أجْدُب...» [2].

قوله: «إنّما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأ»: القيعان جمع قاع. والقاع أرض حرّة لا رمل فيها، ولا يثبت فيها الماء لا ستوائها ولا غدر فيها تمسك الماء فهي لا تنبت الكلأ ولا تمسك الماء» [3].

المسألة الثالثة: الجوانب البلاغية في الحديث

لقد حفلت السنة النبوية بأحسن طرق التعليم والبيان، وسلك النبي -صلى الله عليه وسلم ـ مسالك متنوعة، وسبلا متعدّدة في بيان ما أرسل به،وتبليغ ما كلّف به، ووظّف أساليب شتّى في بيان تعاليم الشريعة وإيصال نور الحق الذي بعث به، ومن طرق ووسائل البيان التي انتهجها مسلك ضرب الأمثال، وهي طريقة القرآن وهديه، وذلك لما تقرّر سابقا من أثر المثل في إيضاح المعاني، وزيادة الإفهام وتصوير المعقولات في صورة المحسوسات، فترسخ في الأذهان، وتصبح القلوب ترى المعاني رأي العين فتشاهدها واضحة بيّنة، وهذا الحديث واحد من مئات الأحاديث التي وظّف فيها أسلوب ضرب الأمثال، فقد حوى نكات بيانية، ولطائف بلاغية أضفت رونقا وجمالا على المعنى المراد إيضاحه وتقريره، ويأتي في طليعة ما اشتمل عليه الحديث من روائع البيان، هو سلوكه - صلى الله عليه وسلم - لمسلك الإجمال، ثمّ التفصيل في عرض ما يريد بيانه، ووجه ذلك أنّه قصد عليه الصلاة بيان ما بعث به من شريعة الإسلام وما تضمنته من تعاليم وأحكام، فشبّه العلم والهدى الذي أرسل به بالغيث الكثير الذي أصاب الأرض وهذا على سبيل الإجمال، ثمّ شرع في في تفصيل أنواع الأراضي التي أصابها ذلك الغيث، والمراد بها قلوب العباد، كما سيأتي بيانه، و أسلوب التفصيل بعد الإجمال نوع من أنواع الإطناب.و هو باب فريد من أبواب علم المعاني، يلجأ إليه قصد تمكين المعنى في النفس بعد تشوّق النفس إليه بعد إلقائه على سبيل الإجمال، فتفصيله بعد إجماله يكون الشعور به أتمّ واللذة به أكمل، ولا يقتدر على أداء هذا الأسلوب في النثر إلاّ من كانت له قدرة ومكنة في العربية يراعي فيها المناسبات والمقامات، وفي الحديث من ضروب البيان فنّ التشبيه، وذلك في تشبّيه -صلى الله عليه وسلم - للعلم والهدى الذي بعث به بالغيث، ثمّ تقسيمه لأحوال السامعين والمتلقين لذلك الهدى والعلم إلى ثلاثة أقسام وتشبيه كل قسم منهم بنوع من أنواع الأرض الثلاثة وهي النقية والأجاذب والقيعان، فالنوع الأول من التشبيه باعتبار طرفي التشبيه من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس، فالعلم والهدى الذي هو المشبه عقلي، والغيث الذي هو المشبه به حسي، والنوع الثاني من التشبيه باعتبار الطرفين أيضا هو من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتفصيل ذلك أنّ الطائفة الأولى التي انتفعت بالعلم شبّهها - صلى الله عليه وسلم - بالأرض النقية ووجه الشبه بينهما هو الانتفاع ونفع الغير، وشبّه الطائفة الثانية

---

[1] - ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، القاضي عياض، ج 1، ص 142

[2] - النهاية في غريب الحديث و الأثر، ج 1، ص 241 - 242، الباب: حرف الجيم، مادة: جدب .

[3] - ينظر: غريب الحديث، ابن الجوزي، ج 2، ص 274، باب: القاف مع الياء .

وهي التي بلغت العلم دون أن تنتفع به بالأجادب ووجه الشبه بينهما هو عدم الانتفاع ونفع الغير، وفي الختام شبّه الطائفة الثالثة وهي التي أعرضت عن الهدى والعلم الذي جاء به بالأرض القيعان التي لا يثبت فيها الماء ولا يستقر، ووجه الشبه بينهما هو عدم الانتفاع ونفع الغير، ويمكن حمل التشبيه الوارد في الحديث على القول بتعدد التشبيه بأنّه تشبيه تمثيلي، لأنّ وجه الشبه فيه صورة مركبة منتزعة من متعدد، وذلك في تشبيه حقيقة العلم المبلغ للناس وانتفاع البعض به وعدم انتفاع البعض الآخر بالمطر المصيب إلى أنواع تلك الأراضي، وفي الحديث من وجوه البديع اللّف والنشر، وهو عند البيانين ذكر متعددّ على جهة التفصيل أو الإجمال، ثمّ ذكر ما لكلّ واحد على من غير تعيين [1]، وهو هنا من اللف والنّشر المرتب، وذلك في تقسيم الناس إزاء الهدى إلى أصناف، ثمّ إلحاق وإتباع كل صنف بما يخصّه ويتعلق به، فقوله -صلى الله عليه وسلم-: «فشربوا وسقوا وزرعوا» الشرب والسقي راجع للقسم الأول، والرعي راجع للقسم الأول على قول بعض الشرّاح، وجوّز بعضهم رجوع الأوصاف الثلاثة للقسم الثاني، وفي هذا يقول الإمام الطيبي -رحمه الله -: «وفي جميع نسخ المشكاة: زرعوا موافقا لما في البخاري وهو الأولى بأن يكون أصلا. وقال ابن حجر: ورعوا من الرعي، ورواية وزرعوا قيل: تصحيف، وأجيب بأنّ المراد به زرعوا غير تلك الأرض، وفيه أنّه لا يظهر ربط بين السؤال والجواب، ثمّ قال: وهذابناء على أنّ رواية: رعوا تشويش النشر، لأنّ الشرب والسقي للقسم الثاني، والرعي للقسم الأول. قلت: لا مانع من أن يكون القسم الثاني جامعا للثلاث، مع أنّه يلزم من حصول الزرع وصول الرعي بخلاف العكس...» [2]، وفي الحديث من ضروب البيان حسن التقسم، وذلك في تقسيم الأرض إلى ثلاثة أقسام، وتقسيم الناس إلى قسمين حيال ما بعث به النبي - صلى الله عليه وسلم -، وهم من فقه وعمل بما علم، ومن أبى وامتنع ولم يرفع بذلك رأسا، هذا ولم يفت شرّاح السنة النبوية من الحفاظ والمحدثين بيان ما حواه هذا الحديث من ضروب البيان، وروائع البلاغة. وممّن جلّى النكات البلاغية في هذا الحديث الإمام بدر الدين العيني - رحمه الله -، حيث جاء في كتابه ما نصّه: «...فيه تشبيه ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام من الدين بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وتشبيه السامعين له بالأرض المختلفة، فالأول تشبيه المعقول بالمحسوس، والثاني: تشبيه المحسوس بالمحسوس، وعلى قول من يقول: بتثليث القسمة يكون ثلاث تشبيهات على ما لا يخفى، ويحتمل أن يكون تشبيها واحدا من باب التمثيل، أي تشبيه صفة العلم الواصل إلى أنواع الناس من جهة اعتبار النفع وعدمه بالمطر المصيب، إلى أنواع الأرض من تلك الجهة. قوله: «فذلك مثل من فقه» تشبيه آخر ذكر كالنتيجة للأول، ولبيان المقصود منه. والتشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في وصف من أوصاف أحدهما في نفسه: كالشجاعة في الأسد، والنور في الشمس. ولا بدّ فيه من المشبّه والمشبّه به، وأداة التشبيه ووجه الشبه. أمّا المشبّه والمشبّه به فظاهران، وكذا أداة التشبيه وهي الكاف، وأمّا وجه الشبه فهو الجهة الجامعة بين العلم والغيث، فإنّ الغيث يحي البلد الميّت، والعلم يحي البلد الميّت، فإن قلت: لم اختير الغيث من سائر أسماء المطر ؟ قلت: ليؤذن باضطرار الخلق إليه حينئذ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]

[1] -ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي، ج 4، ص 600.

[2] -ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح:ج 1، ص 234.

وقد كان الناس قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلوب، وتصوّب العلم حتّى أصابهم الله برحمة من عنده»[1].

فهذه نبذ من أهمّ الدقائق البلاغية التي اشتمل عليها هذا الحديث الغزير في ألفاظه، والدقيق في مبانيه ومعانيه، وحسبنا أنّنا نبهنا على أبرزها وأظهرها، وإلاّ فإنّنا لوقفنا معه وقفة دقيقة لاستخرجنا كنوزا بيانية من كنوز السنة النبيوبة، وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق.

المثل الرابع

المسألة الأولى: نصّ الحديث

قال الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه: «حدّثنا هدبة بن خالد أبو خالد، حدّثنا همام، حدّثنا قتادة، حدّثنا أنس بن مالك، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الذي يقرأ القرآن:كالأترجة طعمها طيّب، وريحها طيّب، والذي لا يقرأ القرآن كالتمرة طعمها طيّب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن: كمثل كالريحانة ريحها طيّب، وطعمها مرّ، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن: كمثل الحنظلة طعمها مرّ ولا ريح لها»[2].

المسألة الثانية: بيان الغريب

قوله: «كالأترجة طعمها طيب» قال الإمام بدر الدين العيني - رحمه الله-: «... وقالوا: الأترجة أفضل الثمار للخواص الموجودة فيها مثل: كبر جرمها، وحسن منظرها، ولين ملمسها، ولونها يسر الناظرين، ثمّ أكلها يفيد بعد الالتذاذ طيب النكهة وذباغ المعدة، وقوة المعدة، واشتراك الحواس الأربعة: البصر والذق والشم واللمس في الاحتظاء بها ، ثمّ إنّ أجزاءها تنقسم على طبائع: فقشرها حار يابس، وجرمها حار رطب، وحماضها بارد يابس، وبزرها حار مجفف»[3].

المسألة الثالثة: الجوانب البلاغية في الحديث

لقد حوى هذا الحديث ضروبا من دقائق البيان، وفنونا من روائع التصوير النبوي، وأظهر ما فيه هو ذلك التشبيه التمثيلي الذي أورده النبي - صلى الله عليه وسلم - في سياق ومقام الترغيب والحث على قراءة القرآن بإبراز أصناف الناس ببيان أحوالهم اتجاه هذا الكتاب قراءة وعملا، وهذا النوع من التشبيه باعتبار طرفي التشبيه هو من قبيل تشبيه المركب بالمركب، وهو ما يكون فيه الطرفان مركبان تركيبا لا يمكن إفراد أجزائهما، بحيث يكون المركب هيئة حاصلة من شيئين، أو من أشياء تلاصقت حتّى اعتبرها المتكلم شيئا واحدا، وإذا انتزع الوجه من بعضها دون بعض اختّل قصد المتكلم من التشبيه[4]، وبيان ذلك في الحديث أنّه عليه الصلاة والسلام شبّه المؤمن المتصف بوصفي الإيمان والقراءة بالأترجة المتصفة بوصفي الطعم والريح، وشبّه المؤمن المتصف

---

[1] - عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ج 2، ص 80.

[2] -صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، رقم 5020، ج 6، ص 190.

[3] - عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 25، ص 200.

[4] - ينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، ص 223.

بوصفي الإيمان وعدم القراءة بالتمرة المتصفة بوصفي طيب الطعم وخلو الريح، وشبّه الفاجر المتصف بوصفي الفجور و القراءة بالريحانة وهي ذات وصفين طيب الرائحة ومرارة الطعم، وشبّه الفاجر المتصف بوصفي الفجور وعدم القراءة بالحنظلة وهي ذات وصفين مرارة الطعم، وخلو الرائحة، فأصناف الناس اتجاه القرآن الكريم على ما صوّره النبي -صلى الله عليه وسلم - في الحديث مقسمّون إلى أربعة، هذا وقد نبّه الإمام بدر الدين العيني على دقّة هذا التشبيه وروعته في التصوير بنقل المعاني المعقولة في صورة المحسوسات والمرئيات المشاهدة وما لذلك النقل والوصف من أثر في تشوف النفوس وتعلقها بما يذكر لها، فيزيدها قناعة ورسوخا بما يراد تنبيهها عليه، فقال - رحمه الله -: «قوله: مثل الذي يقرأ القرآن إلى آخره اعلم أنّ هذا التشبيه والتمثيل في الحقيقة وصف اشتمل على معنى معقول صرف لا يبرزه عن مكنونه إلاّ تصويره بالمحسوس المشاهد، ثمّ إن كلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره، وإنّ العباد متفاوتون في ذلك، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير وهو المؤمن القارئ، ومنهم من لا نصيب له البتّة وهو المنافق الحقيقي، ومنهم من تأثّر ظاهره دون باطنه وهو المرائي أو بالعكس، وهو المؤمن الذي لم يقرأه، وإبراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث ويلائمها أقرب ولا أحسن ولا أجمع من ذلك، لأنّ المشبّهات والمشبّه به واردة على التقسيم الحاضر، لأنّ الناس إمّا مؤمن وإمّا غير مؤمن، والثاني إمّا منافق صرف أو ملحق به، والأول إمّا مواظب عليها، فعلى هذا قس الأثمار المشبّه بها. ووجه التشبيه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين: طعم وريح، وقد ضرب النبي - صلى الله عليه وسلم المثل - بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال فإنّها من ثمرات النفوس، فخصّ ما يخرجه الشجر من الأترجة والتمر بالمؤمن، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيها على علوّ شأن المؤمن وارتفاع علمه ودوام ذلك، وتوقيفا على ضعة شأن المنافق، وإحباط عمله وقلّة جدواه»، وقال في موضع آخر مبيّنا وجه تشبيه المؤمن القارئ للقرآن بالأترجة: «وجه التشبيه بالأترنجة لأنّها أفضل ما يوجد من الثمار في سائر البلدان، وأجدى لأسباب كثيرة جامعة للصفات المطلوبة منها، والخواص الموجودة فيها، فمن ذلك كبر جرمها وحسن منظرها وطيب مطعمها ولين ملمسها، تأخذ الأبصار صبغة ولونا، فاقع لونها تسرّ الناظرين تتوق إليها النفس قبل التناول، تفيد آكلها بعد الالتذاذ بذوقها، طيب نكهة ودباغ معدة، وهضم اشتراك الحواس الأربع البصر والذوق والشم واللمس في الاحتظاء بها...» [1].

ثمّ إنّ هذا الوصف الذي صنّف به الناس وقسموا على أساسه أقساما بناء على علاقتهم بكتاب الله تعالى مستمدّ في أصله من دراية بالطبيعة ومعرفة بأحوال النبتات التي كانت تزخر بها شبه الجزيرة العربية في تلك الحقيبة، ممّا يجعل المخاطبين على درجة كبيرة من التميز والتفريق لتلك الأحوال، وفي هذا يقول الدكتور لطفي الصبّاغ -

[1] -عمدة القاري في شرح صحيح البخاري:ج 20، ص 37.

رحمه الله -: «وهذه الصورة معتمدة على معرفة بأنواع النبتات والثمار الموجودة في البيئة العربية، وهي تساعد على مزيد من التذوق والفهم لحالة كل من المؤمن والمنافق»[1] .

المثل الخامس:

المسألة الأولى: نصّ الحديث

قال الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه: «حدّثنا أبو اليمان، أخبرنا أبو شعيب، حدّثنا أبو الزناد عن أبي عبد الرحمان، أنّه حدّثه أنّه سمع أبا هريرة - رضي الله عنه -.أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلمّاأضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهنّ ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وهم يقتحمون فيها» [2].

المسألة الثانية: بيان الغريب

قوله: «كمثل رجل استوقد نارا» استوقد بمعنى أوقد، وزيادة السين والتاء للإشارة إلى أنّه عالج إيقادها وسعى في تحصيل آلاتها» [3].

قوله: «جعل الفراش» قال الخليل: الفراش الذي يطير معروف كالبعوض، ويقال للخفيف من الرجال: فراشة، وقال غيره: الفراش ما تراه كصغار البق يتهافت [4].

قوله: «فأنا آخذ بحجزكم» قال القاضي عياض- رحمه الله-: «حجزة الإزار والسراويل معقدها، وتحاجز القوم أخذ بعضهم بجزة بعض، وإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه» [5].

قوله: «وهم يقتحمون فيها» أي: يلقون أنفسهم فيها، وأصل التقحم: الدخول في الأمر الضيق لجاجا، ويعبّر به عن الهلاك وإلقاء النفس في المهالك وتعريضها لها قصدا » [6].

المسألة الثالثة: الجوانب البيانية في الحديث

لقد حوى هذا الحديث فنونا وضروبا من البيان ومن جماليته وروده ومجيئه على مسلك ضرب المثل الذي تأكدّت وتقرّرت منزلته ومكانته في إيضاح المعاني وتقريبها، وزيادة الإفهام، فقد قصد - صلى الله عليه وسلم - بضرب هذه الأمثال في هذا الحديث تنبيه أمته، وتحذير أتباعه من أبناء ملته من مغبّة الوقوع في محارم الله وتعدّيها وولوج المعاصي واقترافها، فضرب لهم المثل بما يعرفونه من الدواب ويعاينونه حتّى يترسخ ذلك المعنى في أذهانهم، فمثّل النبي - صلى الله عليه وسلم - نفسه وحاله ببيان تلك الحدود لأمته ونهيهم عن تعديها وتجاووزها،

---

[1] - التصوير الفني في الحديث النبوي: ص 407.

[2] - صحيح البخاري: كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، رقم 6483، ج 8، ص 102.

[3] - ينظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ج 6، ص 463.

[4] - ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم: القاضي عياض، ج 7، ص 252.

[5] - المصدر نفسه: ج 7، ص 552.

[6] - ينظر: مطالع الأنوار على صحاح الآثار، ابن قرقول الواهراني، ج 5، ص 307.

وتحذيرهم من الحمى حولها بحال رجل استوقد نارا، ثمّ مثل أثر ذلك البيان والإيضاح بالإضاءة، ثمّ شبّه - صلى الله عليه وسلم- حال الناس في اتّباعهم للشهوات و طلبهم للملذات بحال الفراش ووقوعه في النار بسبب تتبعه لضوء النار، فكذلك شأن متبعي الشهوات، ومبتغي اللذات، والمنتهك للحرمات، فشأنه أن تفضي به تلك الشهوات إلى النار، ووجه الشبه الجامع بين الفراش ومتبع الشهوات هو الجهل، فالفراش لجهله بحال النار وغلبة ظنّه بأنّها لا تحرقه وقع فيها، وكذلك حال طالبي الشهوات لجهلهم بحقيقتها ومآلها كان طلبهم لها سبب هلاكهم، وهذا النوع من التشبيه عند البيانين هو تشبيه ملفوف الذي هو نوع من أنواع التشبيه المتعدد، والأصل فيه أن يؤتى بالمشبهات أولا عن طريق العطف، ثمّ بالمشبهات بها كذلك، فالنبي - صلى الله عليه وسلم - في هذا الحديث ذكر المشبهات أولا، وذلك في قوله: «مثلي ومثل أمتي»، ثمّ أتى بالمشبهات ثانيا وذلك في قوله: «كالذي استوقد نارا»، ثمّ ذكره لحال أمته وأنّهم كالفراش والدواب، والتشبيه أيضا باعتبار وجه الشبه هو تشبيه تمثيلي، لأنّ وجه الشبه فيه منتزع من متعدد، وذلك في تشبيه حاله - صلى الله عليه وسلم - وحرصه على إنقاذ أمته من الهلاك بحال الرجل الموقد للنار ليهتدي بها الناس ويستشردون بها، غير أنّ الناس غايروا ذلك فلم يهتدوا ويسترشدوا بها، فجعل الفراش يقع فيها جهلا منه بحالها و حقيقتها، فكذلك حال متبع الشهوات ممن لم ينتفع بنور النبي -ـ صلى الله عليه وسلم -، فوجه الشبه إذن منتزع من أمور متعددة هي الجهل وغلبة الهوى والنفس، مع الحرص على اتباع الشهوات، وقد صوّرت تلك الحقيقة في هيئة تركيبية تخييلة ممّا يعاينه الناس من حقيقة وقوع الفراش في النار بسبب اتباعه لضوئها وضعف تمييزه لأسباب الهلاك.

وفي الحديث من ضروب البيان أيضا الاستعارة، وذلك في قوله - صلى الله عليه وسلم -: «آخذ بحجزكم» فقد ذكر الإمام الطيبي أنّها استعارة مثّلت حال منعه الأمة عن الهلاك بحال رجل أخذ بحجرة صاحبه الذي يهوي في قعر بئر مردية [1].

وفي الحديث من فنون المعاني أسلوب الالتفات، وذلك في قوله -صلى الله عليه وسلم -: «فأنا آخذ بحجزكم» حيث انتقل من أسلوب الغيبة في قوله في مستهل الحديث: «إنّما مثلي ومثل الناس» إلى أسلوب الخطاب في قوله: «فأنا آخذ بحجزكم»، والغرض من هذا الأسلوب هو تنشيط السامع ودفع السآمة والملل عليه في الخطاب بنقله من أسلوب إلى أسلوب وهو من الاتساع في الكلام والتفنن في الأساليب، وفي هذا الالتفات مقصد آخر معنوي متجسد في حرصه عليه الصلاة والسلام على نجاة أتباعه ورأفته بهم وخوفه عليهم من الولوج في النار، فهو شبيه بحال من له صاحب مشرف على الهلاك، فينتشله من أسباب ذلك الهلاك ويأخذها بقوة حرصا على عدم ترديه وسقوطه، وهذا هو السر في الالتفات من أسلوب الغيبة إلى الخطاب ومجيئه بالفاء الفصيحة.

[1] - ينظر: شرح المشكاة للإمام الطيبي، ج 2، ص 615.

ونختم القول عن هذا الحديث وأسراره، ومحاسنه الجمّة بما أورده القاضي أبو بكر ابن العربي في ثنايا حديثه عن غرائب هذا المثل بقوله: «هذا مثل غريب كثير المعاني، المقصود منه أنّ الله ضرب مثلا لجهنم وما ركّب من الشهوات المستدعية لها المقتضية للدخول فيها وما نهى عنها وتوّعد عليها وأنذرها وذكر ذلك فيها، ثمّ تغلب الشهوات على التقحم باسم أنّها مصالح ومنافع وهي نكتة الأمثال، فإنّ الخلق لا يأتون ذلك على قصد الهلكة وإنّما يأتون باسم النجاة والمنفعة كالفراش يقتحم الضياء ليس لتهلك فيه ولكنّهاتأنس به وهي لا تصبر بحال حتّى قال بعضهم: إنّها في ظلمة فتعتقد أنّ الضياء كوّة فتستظهر فيها النور فتقصدها لأجل ذلك فتحترق وهي لا تشعر وذلك هو الغالب من أحوال الخلق أو كلّه انتهى» [1].

المثل السادس:

المسألة الأولى:نصّ الحديث

المؤمن قال الإمام البخاري -رحمه الله- في صحيحه: «حدّثنا إبراهيم بن حمزة، قال حدّثني ابن أبي حازم، والدّاروردي، عن يزيد يعني ابن عبد الله بن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمان، عن أبي هريرة أنّه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول:«أرأيتم لو أنّ نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه» قالوا: لا يبقي من درنه شيئا، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا» [2].

المسألة الثانية: بيان الغريب

قوله: «يبقى من درنه» بفتح الدّال والرّاء، أي: وسخه [3].

المسألة الثالثة: الجوانب البلاغية في الحديث

لقد اشتمل هذا المثل على ضرب فريد من ضروب توكيد المعاني وتأكيدها قصد تصوير المعقول في صورة المحسوس تقريبا للأفهام،و إقناعا للنفوس بالمقصود المراد تقريره، وذلك أنّه عليه الصلاة والسلام قصد بهذا الكلام تأكيد أمر مهم مفاده أنّ العبد إذا تدنّس ظاهرا ببعض القاذورات التي تصيب بدنه أو ثوبه، فإنّه يسعى لإزالة ما علق به من نجاسة بتطهير بدنه وثوبه ببعض المطهّرات المادية بالماء والصابون والبخور وما شابه ذلك، فهو أيضا معرض للإصابة ببعض القاذورات المعنوية التي تصيب باطنه فتؤثر على ظاهره. وهذه القاذورات هي أثر الذنوب والمعاصي التي يقترفها العبد ويتلبس بها، فكان لزاما عليه أن يتولّى تطهير نفسه وتزكيتها، كما حرص على تطهير ثوبه وبدنه، فأرشد أمته معلما وموجّها لهم لما يحصل به التطهير. وهو المحافظة على الصلوات الخمس والإتيان بها في أوقاتها بأركانها وشروطها، هذا وقد أوضح الإمام ابن العربي فيما نقله عنه الحافظ ابن

---

[1] -طرح التثريب في شرح التقريب: ج 8، ص 224.

[2] - صحيح البخاري: كتاب الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة،رقم 528، ج 1، ص 112.

[3] - ينظر: مشارق الأنوار على صحاح الآثار، ج 1، ص، 256، باب: درن .

حجر المقصود من سوق هذا المثل وضربه بقوله - رحمه الله - «وقال ابن العربي وجه التمثيل أنّ المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتّى لا تبقي له ذنبا إلاّ أسقطته» [1].

هذا وإنّ من الجماليات البلاغية والروائع البيانية التي انطوى عليها هذا المثل في باب المعاني افتتاحه واستهلاله - صلى الله عليه وسلم - لمطلع الكلام بأسلوب الاستفهام على سبيل التقرير قصد التأكيد، فكأنّه قال لأصحابه أخبروني لو أنّ نهرا صفته كذا وكذا بباب أحدكم فاغتسل منه كل يوم خمس مرات ما تقولون فيه، وهذا الأسلوب من الاستفهام في التعليم له أثره في تقرير المراد وترسيخه في ذهن السامع بعد شدّ ذهنه، ولفت انتباهه. وفيه أيضا حذف للفعل، لأنّ لفظ لو، كما ذكر الإمام الطيبي يقتضي دخولا على الفعل وأن يجاب عنه، لكنّه عدل عن ذلك، ووضع الاستفهام موضعه تأكيدا أوتقريرا، فيكون التقدير: لو ثبت نهر صفته كذا لما بقي كذا [2].

هذا في جانب علم المعاني، وأمّا في باب البيان، فقد اشتمل الحديث على نوع من التشبيه ألا وهو التشبيه التمثيلي. وهذا النوع من التشبيه يكون وجه الشبه فيه منتزعا أو مركبا من أمور متعدّدة، سواء كان حسيا أم عقليا، وهذا النوع من التشبيه له أثره الظاهر والبيّن في تقريب المعاني وإيضاحها، ولذا استعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - هذا الأسلوب والنوع من التشبيه في كثير من كلامه، و وظّفه في العديد من أحاديثه، منها هذا الحديث، لأنّ وجه الشّبه فيه مأخوذ من أمور متعدّدة، ذلك أنّه -صلى الله عليه وسلم -أراد أن يبيّن لأصحابه من حوله، وأمته من بعده فضل الصلوات الخمس وأثرها في محو الذنوب والخطايا التي يقترفها ويتلبس بها الإنسان في نهاره وليله، فحالها كحال النهر المتواجد ببيت الواحد منّا فيغتسل منه كل يوم خمس مرات فيزيل به درنه ووسخه، فلا يبقى عليه شيء من ذلك، وهذه الصورة لا ريب أنّها في التركيب مكونة من أمور متعدّدة، ومن بلاغة الحديث ودقة البيان النبوي في هذا التمثيل هو تقديم المشبّه به، والأصل تقديم المشبّه، لكن جرت العادة ومضت السنة على أنّ العرب يقدّمون ما هو أولى من باب العناية والاهتمام، وهذا أصل عام لسرّ التقديم، إضافة لأسرار أخرى تدرك وتفهم بحسب السياق والمقام، فقدّم النبي عليه الصلاة والسلام المشبّه به هنا حتّى يشدّ انتباه السامع ويلفت ذهن المخاطب لما سيلقى عليه من الكلام وهذا من ضروب التشويق التي تستعمل في أبواب القصص والأمثال حتّى يبقى المخاطب مستمعا للكلام مراعيا لخطاب المتكلم بسمعه وقلبه فتحصل له الفائدة التامة من الكلام المراد إيصاله وإيضاحه.

فهذه بعض الأسرار واللّطائف التي تضمّنها هذا المثل، وانطوى عليها هذا الحديث وهي قطر من بحر، وغيض من فيض، ولو جئنا نتتبع ونستقصي الأسرار البلاغية في الأمثال النبوية لأخذ ذلك منّا مساحة واسعة يتعذر المقام

---

[1] - فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ج 2، ص 12.

[2] - ينظر: عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، بدر الدين العيني، ج 5، ص 15.

عن استفصال ذلك كلّه في هذه المذكرة، ولكن فيما ذكرناه غنية وكفاية للطالب عسى أن تكون هذه النماذج المذكورة منطلقا وعونا له في تقصي وسبر الملح البيانية في أمثاله صلى الله عليه وسلم.

وفي الختام فهذا ما رمت بيانه وتقريره في هذه المذكرة لطلبة الحديث وعلومه قاصدا بذلك إيقافهم على بعض القضايا اللغوية والنحوية المتعلقة بالحديث النبوي ، والتي يحتاجها طالب علوم السنة المشرفة ، إضافة إلى بيان جماليات الحديث النبوي من الجانب البياني عن طريق تحليل أحاديثه وخطبه وقصصه وأمثاله وأدعيته ،لبيان ما حوته من مباحث علوم البلاغية ، وما اشتملت عليه من أسرار البيان النبوي .

قائمة المراجع

مصحف المدينة الالكتروني، برواية حفص عن عاصم.

1. آليات الحجاج البلاغي في خطبة غزوة حنين: زكية بنت محمد بن مبارك السليس العتيبي.
2. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ابن دقيق العيد، ط 1، اعتناء مصطفى شيخ مصطفى، مدثر سندس، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1426 هـ - 2005م.
3. أدب الرسائل في صدر الإسلام.
4. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني، ط 7، مصر، المطبعة الأميرية الكبرى، 1323 هـ.
5. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم تفسير أبي السعود : أبو السعود العمادي، [د.ط]، بيروت، دار إحياء التراث العربي، [د.ت].
6. أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، ط 1، تحقيق: محمود محمد شاكر، القاهرة، مطبعة المدني، دار المدني بجدة، [د.ت].
7. أصول التفكير النحوي: علي أبو المكارم، بيروت، طبع دار القلم، 1973م.
8. أضواء على السنة المحمدية: محمود أبو ريّة، ط 6، القاهرة، دار المعارف، [د.ت].
9. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ط 8، بيروت، دار الكتاب العربي، 1425هـ-2005 م.
10. إعلام الموقعين عن ربّ العالمين: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن القيم الجوزية، ط 1، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، بيروت، دار الكتب العلمية، 1411 هـ - 1991 م.
11. إكمال المعلم بفوائد مسلم: القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، ط 1، تحقيق: يحيى إسماعيل، مصر، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1419 هـ - 1998 م.
12. الأدب وفنونه، دراسة ونقد : عز الدين إسماعيل.
13. الأساليب التعليمية في السنة النبوية: وفاء بنت عبد العزيز بن حمد، مجلة كيرالا، 2012م.
14. الأمثال النبوية في صحيح البخاري -دراسة لغوية دلالية -: هاني طاهر محمد حسين، رسالة ماجستير، نوقشت بجامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، 1425 هـ - 2004 م.
15. أنوار الربيع في أنوار البديع: صدر الدين المديني علي بن أحمد بن محمد بن معصوم الحسني.
16. الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة: عبد الرحمان بن يحيى بن علي المعلمي اليماني، بيروت، المطبعة السلفية ومكتبتها، 1406 هـ - 1986م.

17. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين القزويني، ط 4، دت، بيروت، دار إحياء العلوم، 1998 م.
18. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة: عبد المتعال الصعيدي، ط 17، القاهرة، مكتبة الآداب، 1426 هـ -2005 م.
19. بلاغة التمثيل في القصص النبوي: نورة بنت عبد الرحمان الحربي، مقال منشور بمجلة: الجامعة الإسلامية للغة العربية وآدابها، المدينة المنورة، العدد: 6، الجزء 1، سبتمبر، ديسمبر 2022 م.
20. بنية الزمان والمكان في قصص الحديث النبوي الشريف: سهام سديرة، رسالة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2006م.
21. البيان والتبيين: عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ، [د.ط]، بيروت، دار ومكتبة هلال، 1423هـ.
22. تاج العروس من جواهر القاموس: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، [د.ط]، تحقيق علي شبري، بيروت، دار الفكر، 1414 هـ 1994 م.
23. تاريخ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن خلدون، ط 2، تحقيق خليل شحاذة، بيروت، دار الفكر العربي، 1408 هـ- 1988م.
24. تاريخ الرسل والملوك: تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري، ط 2، بيروت، دار التراث العربي، 1387هـ.
25. تاريخ المدينة: عمر بن شبة، [د.ط]، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، جدة، 1399هـ.
26. تحرير الرواية في تقرير الكفاية: أبو الطيب الفاسي، تحقيق: علي حسين البواب، الرياض، طبع دار العلوم، 1403هـ - 1983م.
27. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، 1984 م.
28. التصوير الفني في الحديث النبوي: محمد لطفي الصباغ، ط 1، المكتب الإسلامي، 1403 هـ - 1983.
29. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: جلال الدين السيوطي، ط 1، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفريابي، دار طيبة، [د.ت].
30. جامع الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى الضحاك الترمذي، ط 1، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998 م.
31. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم و سننه وأيامه صحيح البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط 1، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، 1422 هـ.
32. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، [د.ط]، ضبط وتوثيق وتدقيق: يوسف الصميلي، بيروت، المكتبة العصرية، [د.ت].
33. حاشية الميناوي على شرح حلية اللب المصون في شرح الجوهر المكنون للدمنهوري، مخلوف الميناوي

34. احتجاج النحويين بالحديث: محمود حسني محمود، مقال منشور بمجلة مجمع اللغة العربية الأردنية السنة الثانية ـ العدد المزدوج 3 - 4.

35. الحديث النبوي في النحو العربي: محمود فجال، ط 2، الرياض، مكتبة أضواء السلف، 1417 هـ - 1997م.

36. خزانة الأدب ولباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي، ط 4، تحقيق وشرح: محمد عبد السلام هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1418 هـ-1997 م.

37. الخصائص البيانية للبيان النبوي: محمد أبو العلا أبو العلا الحمزاوي، مكتبة الرشد، 1428 هـ - 2007م.

38. خصائص القصة الإسلامية: مأمون فريز جرار، ط 1، جدة، دار المنارة، 1988 م.

39. الخطابة: أرسطو طاليس، الترجمة العربية القديمة، تحقيق وتعليق: عبد الرحمان بدوي، القاهرة، مكتبة النهضة، 1959م.

40. خطبة الوداع دراسة بلاغية تحليلية: جليل رشيد فالح، مجلة آداب الرافدين، العدد: 13 .

41. دراسات إسلامية:

42. دلائل الإعجاز في علم المعاني: أبو بكر عبد القاهر الجرجاني، ط3، محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، 1413 هـ - 1992م.

43. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: محمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الصديقي الشافعي، ط 4، اعتناء: خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1425 هـ - 2004م.

44. زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن القيم الجوزية، ط 27، بيروت، مؤسسة الرسالة، الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، 1415 هـ - 1994م.

45. سرّ الفصاحة: أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1402 هـ - 1982 م.

46. السنة ومكانتها في التشريع: مصطفى بن حسني السباعي، ط 3، دمشق، بيروت، المكتب الإسلامي، 1402 هـ - 1982م.

47. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، [د.ط]، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية صيدا، [د.ت].

48. شرح المشكاة للطيبي المسمى الكاشف عن حقائق السنن: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، ط1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الرياض، مكة المكرمة، مكتبة نزار مصطفى الباز، 1417هـ -1997م.

49. شعب الإيمان: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، ط 1، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد حامد، مختار أحمد الندوي، الرياض، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، 1423 هـ - 2003 م.
50. الشفا بتعريف حقوق المصطفى: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي البستي، ط 2، تحقيق: مجموعة من الباحثين، عمان، دار الفيحاء،1407 هـ.
51. شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: أبو عبد الله جمال الدين ابن مالك، ط 1، تحقيق: طه محيسن، مصر، مكتبة ابن تيمية، 1405 هـ.
52. الصناعتين: الكتابة والشعر: أبو هلال العسكري، [د.ط]، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، 1419 هـ.
53. طرح التثريب في شرح التقريب: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم العراقي، [د.ط]، مصر، أم القرى للنشر والطبع والتوزيع، [د.ت].
54. عمدة القاري في شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني، [د.ط]، بيروت، دار إحياء التراث العربي، دت.
55. غريب الحديث: جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي، ط 1، تحقيق: عبد المعطي أمين القلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1405هـ - 1985م.
56. الفائق في غريب الحديث والأثر: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ط 2، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، دار المعرفة، [د.ت].
57. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، [د.ط]، ترقيم وتصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، محبّ الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، 1379 هـ.
58. فنّ البديع: عبد القادر حسين، ط 1، مصر، دار الشروق، 1403 هـ - 1983م.
59. فنّ الخطابة ومهارات الخطيب بحوث في إعداد الخطيب الداعية: إسماعيل علي محمد، ط5، القاهرة، دار الكلمة للنشر والتوزيع،1437 هـ - 2016م.
60. فنّ الخطابة: أحمد الحوفي، القاهرة، نهضة مصر.
61. القاموس المحيط: مجد الدين أبو طاهر محمد الفيروز آبادي، ط 8، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1426 هـ - 2005م.
62. القصة في الحديث النبوي - دراسة أسلوبية -: كرمية حجازي، رسالة دكتوراه، جامعة باتنة، قسم اللغة العربية، إشراف: عيسى مدور، 2017م - 2018.
63. القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية، محمد بن الحسن الزير، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1405هـ.
64. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ط 2، بيروت،

دار الكتاب العربي، 1407 هـ.
65. كشف الخفاء ومزيل الإلباس: إسماعيل بن محمد عبد الهادي الجراحي العجلوني، ط 1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط 1، بيروت، المكتبة العصرية، 1420هـ - 2000 م.
66. الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية: أيوب بن موسى الحسيني القريمي أبو البقاء الكفوي، ط 1، تحقيق: عدنان درويش، محمود المصري، بيروت، مؤسسة الرسالة، دت.
67. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: محمد بن يوسف بن علي بن سعيد شمس الدين الكرماني، ط 2، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1401 هـ - 1981م.
68. لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، ط 3، بيروت، دار صادر، 1414 هـ.
69. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، ط1، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد وآخرون، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1421هـ - 2001م.
70. مشارق الأنوار على صحاح الآثار: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، [د.ط]، المكتبة العتيقة ودار التراث، [د.ت].
71. مع الله دراسات في الدعوة والدعاة : محمد الغزالي، ط 5، القاهرة،ـ دار الكتب الإسلامية، 1403 هـ - 1981 م.
72. معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبة، كامل المهندس.
73. مفتاح العلوم: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، ط 1، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، 1403هـ -.1983 م.
74. من بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم في رسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى رسالة الإسلام
75. من بلاغة سرد القصص النبوي حديث أصحاب الغار نموذجا: مفيدة محمد حسن، مقال منشور بمجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بسوهاج جامعة الأزهر، العدد السابع والعشرون، جانفي 2021م.
76. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير، ط 1، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، القاهرة، دار مصر للطباعة والنشر والتوزيع، [د.ت].
77. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، [د.ط]، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، [د.ت].
78. المسند: أحمد بن حنبل الشيباني، ط 1، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، دار الحديث، 1416 هـ -

1995 م.

79. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، ط 2، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، القاهرة، مكتبة ابن تيمية.

80. المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، ط 1، صفوان عدنان الداودي، دمشق، بيروت، دار القلم، الدار الشامية، 1412هـ.

81. المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، ط 1، تحقيق: عبد الرحمان بن سليمان العثيمين، مكة المكرمة، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، 1428هـ - 2007م.

82. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي، ط 2، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1392 هـ.

83. الموطأ: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، ط 1، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، أبو ظبي الإمارات، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، 1425 هـ - 2004 م.

84. نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي: علي حسين عبد القادر، ط3، مصر، مكتبة القاهرة الحديثة، 1965م.

85. النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، ط 1، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1399 هـ - 1979م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	
المحاضرة الأولى: مقدمات مفاهيمية الفصاحة والبلاغة	7
المحاضرة الثانية: الاحتجاج بالحديث النبوي بين المجيزين والمانعين	11
المحاضرة الثالثة: شبهات المستشرقين في بلاغة الحديث وفصاحته	23
المحاضرة الرابعة: خصائص الأسلوب النبوي	34
المحاضرة الخامسة: التحليل البلاغي للقصص النبوي	51
المحاضرة السادسة: التحليل البلاغي للخطب النبوية	60
المحاضرة السابعة: التحليل البلاغي للكلام النبوي	70
المحاضرة الثامنة: التحليل البلاغي للرسائل النبوية	75
المحاضرة التاسعة: التحليل البلاغي للأمثال النبوية	89
قائمة المصادر والمراجع	102
فهرس المحتويات	109